آغوتا كريستوف

@ketab_n
Follow Me
21.5.2016

أمس

رواية

ترجمة: بسام حجار

المركز الثقافي العربي

أَمس

(رواية)

تأليف: آغوتا كريستوف
ترجمة: بسام حجار

المركز الثقافي العربي

Twitter: @ketab_n

أَمس

(رواية)

Twitter: @ketab_n

* أمس (رواية)
* تأليف: آغوتا كريستوف
* ترجمة: بسام حجار
* الطبعة الأولى، 1996
* جميع الحقوق محفوظة
* الناشر: المركز الثقافي العربي

□ الدار البيضاء/ • 42 الشارع الملكي (الأحباس) • فاكس /305726/ • هاتف/ 303339 - 307651/.
• 28 شارع 2 مارس • هاتف /271753 - 276838/ • ص.ب./ 4006/ درب سيدنا.

العنوان:

□ بيروت/ الحمراء ـ شارع جان دارك ـ بناية المقدسي ـ الطابق الثالث.
• ص.ب/ 113-5158/ • هاتف/ 352826 - 343701/ • فاكس/ 00961-1-343701/.

Twitter: @ketab_n

أمسِ كان كلُّ شيءٍ جميلاً
النَّغَمُ خلَلَ الأشجار
النّسَمُ خلَلَ شَعْري
وفي راحتيك المبسوطتين
كانتِ الشمس.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الهروب

أمْسِ كانت تهبُّ رياح أَلوف. رياح صادفتها مِنْ قبل.

كان ربيعاً مُبكراً. وكنتُ أسيرُ في المهبّ بخُطى واثقة، متسارعة، على غرارِ ما دَرَجتُ عليه كلّ صباح. غير أنّي كم ودِدتُ أن أعود إلى فراشي لأستلقي ساكناً بلا حراك، خليَّ البالِ خليَّ الرغباتِ، وأن ألبث فيه ممدّداً إلى أن يراودني الإحساسُ بدنوّ ذلك الشيء الذي ليس صوتاً ولا مذاقاً ولا رائحة، وإنمّا تذكار غائم يلوحُ لي من وراءِ تخوم الذاكرة.

على مَهَل، فُتِحَ البابُ وتحسّست يداي المتدلّيتان بهَلَعٍ فَرْوةَ النمر الحريرية الناعمة.

ـ موسيقى، قال. اعزف لحناً ما على الكمان أو البيانو. الأحرى على البيانو. اعزف!

ـ لا أجيد العزفَ، قُلْتُ. لم أعزف يوماً على البيانو، ليس عندي بيانو، ولم يكن عندي واحدٌ ذات يوم.

ـ في حياتك كلها؟ يا للحماقة! اذهب إلى النافذة واعزف!

قبالة نافذتي، كانت هناك غابة. ورأيت العصافير تجتمع على

Twitter: @ketab_n

الأغصان لتصغي إلى موسيقاي. رأيتُ العصافير. رؤوسها المُطرِقة وعيونها الجامدة التي تحدِّقُ إلى شيءٍ ما من خلالي.

كانت موسيقايَ تصدحُ أعلى فأعلى، حتّى أصبحت فوق كل طاقة واحتمال.

كان عصفورٌ ميتٌ يسْقط عن أحدِ الأغصان.

صَمَتتْ الموسيقى.

إستدرتُ ملتفتاً.

رابضاً في وسطِ الغرفة كان النمرُ يبتسم.

ـ كفى لهذا اليوم، قال. يجب أن **تواظب على** التمارين على نحو منتظم.

ـ **بلى**، أعِدُكَ، سأواظب على التمارين. غير أني أتوقع زوّاراً، **أوتدري** لو سمحت. وقد يرى هؤلاء أن وجودَك هنا، في بيتي، أمرٌ مُستهجن.

ـ بالطبع، قال متثائباً.

ـ وبخطى رشيقة جاوز عتبة الباب الذي أحكمتُ إقفاله وراءه.

ـ إلى اللقاء، خاطبني قائلاً قبل أن يغادر.

كانت لين تنتظرني عند بوّابة المصنع متكئة على الجدار. شاحبة وحزينة فعقدتُ العزمَ على أن أتوقف وأكلمها. غير أني

Twitter: @ketab_n

جاوزتها حتّى دون أن ألتفت إليها.

بعد ذلك بقليل، وكنتُ قد أَدَرْتُ آلتي، وجدتها بجانبي.

أوتعلم، إنه أمرٌ غريب. لم أرَكَ يوماً ضاحكاً، أعرفك منذ أعوامٍ. ومنذ أن عرفتكَ لم تضحك مرّةً واحدة.

ـ نظرتُ إليها وأطلقتُ ضحكةً مدوّية.

ـ أفضّل أن لا تفعل، قالت.

ـ في تلك اللحظة شعرتُ بقلقٍ شديد، وانحنيتُ عبر النافذة لأرى إذا كانت الريح ما زالت هناك. وطمأنتني رعشةُ الأشجار.

حين استدرتُ ملتفتاً، كانت لين قد غادرت. وإذ ذاك خاطبتها:

ـ لين، أني احبُّك. أحبُّكِ، حقاً يا لين ولَكِنْ لا يُسعفني الوقت لأفكّر في هذا، فهناك أمور لا تُحصى تستأثر بتفكيري، تلكَ الرياح مثلاً، إذ ينبغي أن أغادر الان وأسير في مهبِّها. ليس بصحبتكِ يا لين، لا تغضبي مني. ذلك أن السير في مهبِّ الرياح لا يكون إلاّ على انفراد لأنّ ثمة نمراً وبيانو موسيقاه تغتالُ العصافير، والخوفُ لا يزول إلا إذا بدّدته الرياح، وهذا أمرٌ شائع لطالما أدركته.

كانت الآلات من حولي تؤذنُ ببداية مواقيت الصلاة.

اجتزتُ الممرَّ. كان البابُ مفتوحاً.

لطالما كان البابُ مفتوحاً ولم أسْع ذات يوم لأن أجتاز عتبته.

لِمَ؟

Twitter: @ketab_n

كانت الشوارع في مهبِّ الرياح. وتلك الشوارع المقفرة بَدَتْ لي غريبة. ذلك أني لم أرَ من قبل صبيحة يوم عَمَلْ.

بعد ذلك، جَلَسْتُ على مدِّ حجري وبكيت.

كان بعد الظهر مُشمساً. سُحُبٌ صغيرة كانت تعكِّر صفو السماء، وكان الطقسُ لطيفاً جداً.

دخلتُ مقصفاً، كنتُ جائعاً. وضعَ النادلُ طبقاً من السندويشات أمامي.

قلتُ في سرّي:

الآن يجب أن تعود إلى المصنع. يجب أن تعود إليه فما من داعٍ لأن تترك عملك. بلى، الآن أعود إليه.

ورحتُ أبكي مجدّداً وأدركتُ أنني التهمت كلَّ السندويشات.

استقليت الباص لأصل بسرعة. كانت الساعة الثالثة من بعدِ الظهر. وكان بإمكاني أن أعمل بعد ساعتين ونصف الساعة.

تلبّدت السماء بالغيوم.

حين مرَّ الباص من أمام المصنع، حدق الناظر إليَّ. وبعد وقتٍ لكزْ كتفي:

إنها المحطَّة الأخيرة يا سيِّد.

ترجَّلتُ وكانت حديقة. أشجار وبضعةُ بيوت. وكان ليلٌ حين دخلتُ الغابة.

كان المطرُ قد أصبح غزيراً ويُخالطه نَدْف. الرياح تصفع وجهي بوحشية. غير انها كانت هيَ هيَ. الرياح إيَّاها.

Twitter: @ketab_n

كنتُ أسير بخطى متسارعة نحو قمّة.

أغمضتُ عيني، فبأية حال كنتُ لا أرى شيئاً من حولي. وفي كلِّ خطوة اصطدم بجذع شجرة.

ـ ماء!

من بعيد، من مكان ما فوقي صرخ أحدهم.

بدا الأمرُ سخيفاً فالمياه تهطل علينا من كلِّ حدبٍ وصوب.

أنا أيضاً كنتُ أشعر بالظمأ. أرخيتُ رأسي إلى الوراء وتهالكتُ أرضاً وقد فرَّجتُ ذراعيَّ كالمصلوب. دفنتُ وجهي في الوحلِ البارد ولبثتُ بلا حراك.

هكذا مُتُّ.

ولم يلبث جسمي أن اختلط بالتراب.

Twitter: @ketab_n

بالطبع، لست ميتاً. فقد عَثَرَ عليَّ مُتنزِّهٌ، مُستلقياً في الوحل وسط الغابة. واستدعى سيَّارة إسعاف نقلتني إلى المستشفى. حتَّى أنني لم تجمد أوصالي، فقط كنتُ مُبلَّلاً. لقد أمضيت الليلة نائماً في الغابة، لا أكثر.

لا، لم أكن ميتاً، فقط أصبتُ بالتهاب رئوي كادَ يودي بحياتي. وكان عليَّ أن ألزم المستشفى لمدّة ستة أسابيع. وحين شفيت من الالتهاب الرئوي، نُقِلْتُ إلى جناح العناية النفسية لأنني أردتُ أن أقتل نفسي.

كنتُ مسروراً لبقائي في المستشفى لأنني لا أريد أن أعود إلى المصنع. فأنا أشعر بالراحة هنا وأتلقى العناية وبإمكاني أن أنام. أمَّا بشأن وجبات الطعام فليَ الحقّ في الاختيار بين صنوفٍ عديدة. كما يُسمح لي بالتدخين في الردهةِ الصغيرة. وحين أخاطبُ الطبيب بإمكاني أن أدخِّن أيضاً.

ـ لا يسع واحدنا أن يكتب موته.

الطبيب النفساني هو الذى قال لي هذا، وأنا أوافقه الرأي لأنَّ واحدنا حين يموت لا يعود بمستطاعه أن يكتب. ولكنّي في قرارة

Twitter: @ketab_n

نفسي، أعتقد انني قادر على كتابة أي شيء، حتّى لو كان الأمرُ مستحيلاً وحتى لو كان غير صحيح.

عموماً، أكتفي بالكتابة في رأسي. فمثل هذا أيسر بكثير. في الرأسِ كلّ الأمور تجري دون مشقّات. ولكنْ ما أن نسرع في الكتابة حتّى تتحوّل، الأفكار وتتشوّه، ويُصبح كلّ شيء زائفاً. بسبب الكلمات.

أكتب أنّى وُجِدت. أكتب وأنا أسير، باتجاه الباص، أكتب وأنا جالس في الباص، في غرفة الملابس المخصصة للرجال، أمام آلتي.

المشكلة أنني لا أكتب ما ينبغي أن أكتب، أكتب أيَّ شيء، أشياءَ لا يستطيع أحدٌ أن يفهمها كما لا أفهمها أنا أيضاً. عند المساء، حين أعاود تدوين ما كنتُ كتبته في رأسي طيلة النهار، أسأل في سرّي لِمَ كتبت كلَّ هذا. لِمنْ ولأيِّ سبب؟

يسألني الطبيب:

ـ من تكون لين؟

ـ لين ليست سوى شخصية مختلقة لا وجود لها.

ـ والنمر والبيانو والعصافير؟

ـ كوابيس؟ مجرّد كوابيس.

ـ هل حاولت أن تموت بسبب كوابيسك؟

Twitter: @ketab_n

ـ لو أنني حاولتُ حقاً أن أموت، لكنتُ ميتاً الآن. إنمّا أردت أن أستريح. فما عاد بمقدوري أن أواصل عيشي على هذا النحو، المصنع وكلّ شيء آخر؛ غياب لين؛ غياب الرجاء. النهوض عند الخامسة صباحاً؛ السَّير؛ الركض في الشوارع للحاق بالباص؛ أربعون دقيقة في الباص؛ الوصول إلى البلدة الرابعة، بين جدران المصنع. الإسراع في ارتداء المئزر الرمادي؛ التدافع لتسجيل الحضور أمام ساعة ضبط الدوام؛ الركض نحو الآلة؛ تشغيلها؛ ثقب القطعة بأسرع وقت ممكن؛ ثم ثقب آخر وآخر، دائماً الثقب نفسه في القطعة نفسها، عشرة آلاف مرّة في اليوم الواحد إذا كان ذلك ممكناً، ذلك أن راتبنا وقفٌ على مثل هذه السرعة، ذلك أن حياتنا وقفٌ عليها.

يقول الطبيب:

ـ انها ظروف حياة العمّال. اغتبط فعلى الأقل لديك عمل. كثيرون غيرك يحييون في ظروفٍ من البطالة. أما لين... فتاة شقراء جميلة تأتي لزيارتك كلّ يوم. لِمَ لا يكون إسمها لين؟

ـ لأنها تُدعى يولاند، ولن يكون اسمها لين ما حييت. ليست لين، إنها يولاند. يا له من اسم سخيف، أليسَ بلى؟ كما انها هي أيضاً بمثلِ سخافة اسمها. شعرها الأشقر المصبوغ وقد لفَّته كعكةً عند قمة رأسها. أظافرها المطلية بطلاء زهريّ، طويلة مثل مخالب، كعباها المروَّسان طول واحدهما عشرة سنتمترات. يولاند امرأة قصيرة القامة، قصيرة جداً يا سيّد، ولذا تنتعلُ أحذية يبلغ طول كعبها العشرة سنتمترات بالإضافة إلى تسريحتها السخيفة.

يضحك الطبيب:

Twitter: @ketab_n

ـ لِمَ تواظب إذاً على رؤيتها؟

ـ لأني لا أعرف سواها. ولأنّ لا رغبة لي في أن أبدِّل ما بحالي. فيما سبق بدّلتُ كثيراً حتّى تعبت. وبأية حال، الأمور دائماً هيَ هيَ، يولاند أو سواها؟ أزورها في بيتها مرّة في الأسبوع. هي تطبخ وأنا أحضر معي النبيذ. لا تربطنا علاقة حبّ.

يقول الطبيب:

ـ ربّما في ما يعنيك أنتَ. ولكن كيف لكَ أن تعرف شيئاً عن مشاعرها هي؟

ـ لا أريد أن أعرف شيئاً. مشاعرها لا تعنيني. سأواظب على رؤيتها بانتظار وصول لين.

ـ أما زلت تصدِّق بأنها ستصل ذات يوم؟

ـ بالتأكيد. أعلم جيّداً أنها موجودة في مكانٍ ما. ولطالما أيقنت أنني ما جئتُ إلى هذا العالم الاّ لكي ألتقيها. وهي أيضاً. لمْ تأتِ إلى هذا العالم إلاّ لكي تلتقيني. تُدعى لين، وهي امرأتي وحبّي وحياتي. لم أرها من قبل.

التقيتُ يولاند فيما كنتُ أشتري بعض الجوارب. سوداء ورمادية وجوارب تَنِس بيضاء. لا ألعبُ التنس.

حين التقيت يولاند للمرّة الأولى، وجدتُ أنها جميلة جداً. رشيقة. كانت تحني رأسها وهي تعرضُ عليَّ صنوف الجوارب؛

Twitter: @ketab_n

كانت تبتسم، كأنها ترقص.

سدَّدتُ ثمن الجوارب وسألتها:

ـ أبإمكاننا أن نلتقي في مكان آخر؟

ضحكت ببلاهة، سوى أني لم أكن معنيّاً ببلاهتها. كنتُ معنياً بجسدها فقط.

انتظرني هناك، في المقهى الذي يقع في الجهة المقابلة. أنهي عملي عند الخامسة.

ابتعتُ قنينة نبيذ ثمَّ انتظرتُ في المقهى المقابل مع جواربي التي وضعت في كيس من البلاستيك.

جاءت يولاند. احتسينا فنجان قهوة، ثمَّ قصدنا منزلها.

إنها تجيد الطبخ.

قد تبدو يولاند جميلة لمن لا يراها حين تنهض من نومها.

فإذ ذاك تبدو كخرقة مجعوكة بشعرها المسترسل على كتفيها ولطخات الماكياج ودوائر الكحل الهائلة حول عينيها.

أراقبها وهي تسير في اتجاه الدوش؛ ساقان نحيلتان، وعجيزة ضامرة ونهدان مُفَلطحان.

تمكث في الحمّام ساعة على الأقل. وحين تغادره ترى مجدّداً انها يولاند الجميلة العذبة بتسريحتها وماكياجها وكعبِ العشرة سنتمترات. مبتسمة. ضاحكة ببلاهة.

في معظم الأحيان أعودُ إلى بيتي في ساعة متأخرة من ليلِ السبت ولكن يحصل أحياناً أن أبقى عندها حتى صباح يوم الأحد.

Twitter: @ketab_n

وفي مثل هذه الحال أتناول طعام الفطور معها.

تذهب لشراءِ الكرواسان من دكان الخبازة العاملِ يوم الأحد الذي يقع على مسافة عشرين دقيقة سيراً على الأقدام. وتعدّ القهوة.

نأكل. وبعد ذلك أعود إلى بيتي.

ماذا تفعل يولاند أيام الآحاد بعد أن أغادرها؟ لا أدري. ولم أسألها يوماً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكذبة

من بين أكاذيبي كافّةً، تلك كانت أشدّها طرافة: عندما قلتُ لكِ كم كنتُ أودّ أن أرى بلادي مجدداً.

مراراً أطبقتِ أجفانك على مَهَل، مُشفقةً، وتنحنحتِ مطوّلاً لكي تعثري على العبارات التي تنمّ عن مواساة وتفهُّم. وما تجرّأتِ على الضحك طوال السهرة. لقد كانت مثل هذه الحكاية تستحقّ أن أرويها لكِ.

عندما عدتُ إلى داري، أضأتُ المصابيح في كافة الحجرات ووقفتُ قبالة المرآة. رحتُ أحدّقُ في وجهي إلى أن أصبحت صورتي غائمةً لا أتعرّف إليها. خلال ساعات طويلة رحتُ أذرع أرضية غرفتي جيئةً وذهاباً. كانت كُتُبي مهملة بلا حياة على الطاولة، والأرفُف، وكان سريري بارداً، مُفرطاً في نظافته، فمحالٌ أن أنام.

كان الفجر على وشكِ البزوغ وكافة نوافذ المنازل المقابلة معتمة.

تحقّقت مراراً من أنّ الباب مُحكم الإقفال، ثم حاولتُ أن أفكّر فيكِ لكي يراودني النعاس غَير أنّكِ ما كنتِ في خاطري سوى صورة رمادية متلاشيةً كمثل تذكاراتي الأُخرى.

Twitter: @ketab_n

كمثلِ الجبال السوداء التي عبرتها ذات ليلة شتاء، كمثل تلك الحجرة في المزرعة الخَرِبة حيث استيقظت ذات صباح، كمثل الفَبْركة الحديثة حيث أعمل منذ عشر سنوات، كمثل مشْهَدِ أقَمْنا على تملّيه إلى أن فقدنا الرغبة في رؤيته.

وكنتُ، عمّا قليل، سأفقد كلَّ ما يمكن أن أفكّر فيه، ولا يبقى لي سوى الأمور التي لا أودّ أن أفكّر فيها. وكم ودِدتُ أن أبكي قليلاً غير أني ما استطعتُ للبكاءِ سبيلاً لأنني لم أكن أدرك سبباً لبكائي.

Twitter: @ketab_n

يسألني الطبيب:

ـ لم اخترت إسمَ «لين» للمرأةِ التي تنتظرها؟

أقول له:

ـ لأن أمي كانت تُدعى لينا ولأنني كنتُ أحبّها كثيراً. توفيت حين كنت لا أزال في العاشرة من عمري.

يقول:

ـ حدِّثني عن طفولتك

كنتُ أتوقع منه هذا السؤال. طفولتي! كلُ الناس يهتمّون بطفولتي.

أفلتُّ بحذاقة من هذه الأسئلة الغبيّة. فقد كانت طفولتي التي تدبَّرتها جيّداً لكل مناسبة، وكذبتي ناجزة لا ثغرة فيها. فقد استخدمتها مراراً من قَبل. وسَرَدتُ وقائعها على مسامع يولاند، وأصدقائي ومعارفي وهم قلّة قليلة، وسأروي الحكاية نفسها لِ لين.

أنا يتيم حرب. توفي والداي من جراء القصف، وأنا الناجي الوحيد من بين كافة أفراد العائلة. لا إخوة لي.

Twitter: @ketab_n

ترعرعتُ في ميتم شأن العديد العديد من الأطفال في ذلك الوقت. ولمَّا بلغتُ الثانية عشرة هربتُ من الميتم وعبرتُ الحدود. هذا كلّ شيء.

ـ كلُ شيء؟

ـ أجل، كلُ شيء.

مسكين فعلاً إذا كان يحسب أنني سأروي له حكاية طفولتي الحقة!

ولدتُ في قرية لا اسم لها، وفي بَلَد لا شأن له.

كانت والدتي استير تتسوّل في البلدة، وكانت تضاجع الرجال أيضاً، وكان الفلاّحون يتصدّقون عليها بالطحين والذرة والحليب؟ وأحياناً تسرق الفواكه والخضار من البساتين والحقول وقد توفّق ذات يوم بدجاجة أو فرخ بطّ من فِناء مزرعة ما.

وعندما يذبح الفلاّحون خنزيراً، كانوا يحتفظون لها منه بالفضلات، الأحشاءَ أولاً أدري ماذا أيضاً؟ كلُ ما يأنف أهلُ القرية من أكله.

أمَّا لنا فكانَ كلُ شيءٍ طيّباً.

كانت أمي لصّة ومتسوِّلة وموسس القرية.

أنا، كنتُ جالساً أمام المنزل، ألعب بالتراب الصلصالي، أعجنه، أصنع منه أعضاءَ ذكرية ضخمة وأثداءً ومؤخّرات. وفي

Twitter: @ketab_n

الطين الأحمر كنتُ أنحتُ جسد أمي حيث أغرزُ أصابعي الطفولية لأجعل فيه ثقوباً، الفم، الأنف، العينان، الأذنان، الفرج، الدّبر، والسرّة.

كانت أمي مكسوّة بالثقوب، مثل منزلنا، مثل ملابسي، مثل نعليَّ. كنت أسدّ ثقوب نعلي بالطين.

كنت أحيا في الفِناء.

حين أشعر بالجوع أو النعاس أو البرد، كنت أعود إلى البيت، أعثر على شيء ما ألتهمه، بعض البطاطا المشوية، أو بعض الذرة المطبوخة، واللبن الرائب، وأحياناً بعض الخبز، ثمَّ أستلقي على فراشي القش بقرب موقد الطبخ.

في معظم الأحيان يكون باب الحجرة مفتوحاً لكي يتسرَّبَ إليها دفءُ المطبخ. وكنت أرى وأسمع كلَّ ما يجري فيها.

تأتي أمي إلى المطبخ لكي تغسل مؤخرتها في دلوٍ ثمَّ تنشفها بخرقة وتعود إلى النوم. كانت لا تكلّمني إلا فيما ندر ولا أذكر أنّها قبلّتني مرّة واحدة.

والأعجب هو أنني بقيتُ ولداً وحيداً. وما زلت أسأل نفسي كيف استطاعت أمي أن تتدبَّر أمر حَمْلها أكثر من مرّة، ولِمَ «احتفظت» بي أنا. ربما كنتُ «حادِثَتَها» الأولى. ففارق السن بيننا لا يتعدّى السبعة عشر عاماً. وربّما اهتدت فيما بعد إلى ما ينبغي أن تفعله لكي لا تعيقها الولادات وتبقى هي على قيد الحياة.

أذكر أنها كانت تلازم الفراش مراراً ولبضعة أيام متتالية وتصبحُ الخِرَقُ كلّها مبلّلة بالدماء.

Twitter: @ketab_n

طبعاً، لم أكن لأعير كلّ ذلك أي أهتمام. لا بل يسعني أن أقول إنني حظيتُ بطفولة سعيدة لأني ما كنت أعلم أنَّ هناك أشكالاً أخرى من الطفولة.

كنتُ لا أقصد القرية أبداً. نقيم قرب المقبرة، في آخر زقاق من القرية، وفي آخر منزلٍ فيه. كنتُ سعيداً باللعب في الِفناء، بالوحل. أحياناً تكون السماء صافيةً، غير أني كنت أحبُّ الريح والمطر والغيوم. فالمطر يُلصِق شعري على جبيني وعند قذالي، وفي عينيَّ. والريح تنشف شعري وتداعب وجهي. أمّا المسوخ المختبئة في الغيوم فكانت تحدّثني عن بلدات مجهولة.

في الشتاء، كان الأمرُ أكثر مشقّة. وبرغم حبّي لنديفات الثلج أيضاً، فإني ما كنتُ أستطيع البقاء طويلاً في الخارج. لم تكن لديَّ ملابس تدفئني فسرعان ما أحسّ بالبرد يجمّد أطرافي وخصوصاً قدميّ.

لحسن الحظ أنَّ الدفء كان يسود دائماً المطبخ. كانت أمي تجمع روث البقر الجاف والحطب والحطام لتشعل ناراً. فهي لا تحبّ أن تشعر بالبرد.

أحياناً يُغادر رَجُلٌ الحجرة ويدخل إلى المطبخ. يرمقني مطوَّلاً، ويداعب شعري، ثمَّ يقبلني على جبيني، ويشدُّ راحتي على خدّيه.

كنتُ أمقت ما يفعله، أخَافه، أرتعد. غير أني لا أمتلك الجرأة لصدّه.

Twitter: @ketab_n

غالباً ما كان يأتي. ولم يكن فلاّحاً.

كنتُ لا أخاف الفلاّحين، بل أكرههم، احتقرهم، أتقزّز منهم.

ذلك الرجل إيّاه، ذاك الذي كان يُداعب شعري، إلتقيته في المدرسة.

لم يكن في القرية سوى مدرسة واحدة. وكان المدرِّسُ يدرِّسُ التلاميذ في كافة الصفوف، حتّى الصف المتوسّط الأول.

لمناسبة اليوم الأوّل من الدراسة، غسلتني أمي وألبستني وقصّت لي شعري. هي أيضاً ارتدت أفضل ما لديها. واصطحبتني إلى المدرسة. كانت لا تزال في الثالثة والعشرين من عمرها؟ كانت جميلة؟ أجمل امرأة في القرية؟ وكنتُ أخجل بها.

قالت لي:

ـ لا تَخَف. المدِّرس لطيف. وأنت تعرفه.

دخلت قاعة الدرس وجلستُ في الصف الأمامي. قُبالة طاولة الاستاذ تماماً. كنتُ أنتظر. بجانبي جَلَستْ فتاة ليست جميلة جدّاً، شاحبة وهزيلة، بجديلتين متدليتين على جانبي وجهها. نظرت إليَّ وقالت:

ـ إنَّك ترتدي سترة شقيقي، وحذاءه أيضاً. ما اسمك؟ أنا أدعى كارولين.

دخل المدرِّسُ وعرفته على الفور.

قالت كارولين:

Twitter: @ketab_n

ـ إنّه والدي. وهناك، في الخلفِ يجلس أخي الأكبر في صفوف الكبار. وفي المنزل، هناك أخي الأصغر الذي لم يجاوز أعوامه الثلاثة. أبي يُدعى ساندور وهو الآمر الناهي هنا. ما اسم والدك أنت؟ وما هي مهنته؟ إنّه فلاّح، على ما اعتقد. فلا يوجد هنا سوى فلاّحين، ما عدا أبي.

قلت:

ـ ليس لي والد. لقد مات.

ـ أواه! هذا مؤسف. لا أحبّ أن يكون والدي ميتاً. مع ذلك، هناك الحرب وكثير من الناس سيلقون حتفهم قريباً. خصوصاً الرجال.

قلت:

ـ لم أكن أعلم أن هناك حرباً. ولكن ربّما كنتِ كاذبة.

ـ لستُ كاذبة. فأخبار الحرب تذاع كلّ يوم عبر الراديو.

ـ لا أملك راديو. حتى أني لا ادري ما هو.

ـ أنت أحمق حقاً! ما اسمك؟

ـ طوبياس. طوبياس هورفات.

ضَحِكَت:

ـ طوبياس، إنه إسم مُضحِك. جدّي يُدعى طوبياس غير أنه عجوز. لِمَ لَمْ يُطلق عليك اسمٌ عادي؟

ـ لا أدري. أنا أرى أن طوبياس اسم عادي. ثمّ أنّ كارولين، هو أيضاً ليس إسماً رائعاً.

Twitter: @ketab_n

ـ أنتَ مُحقّ. فأنا لا أحبّ اسمي.

سمِّني لين، كما يفعل الجميع.

قال المدرِّس:

ـ كفّوا عن الثرثرة يا أولاد.

تابعت لين همساً:

ـ أنت في أي صفّ؟

ـ في الأوّل.

ـ أنا أيضاً.

وزّع المدُرس لائحة الكتب والدفاتر التي يتوجّب علينا شراؤها.

رجع الأولاد إلى منازلهم. وبقيتُ وحيداً في قاعة الصفّ. سألني المدرّس:

ـ ألديك مشكلة يا طوبياس؟

ـ أجل. أمي لا تجيد القراءة، ولا مال لدينا.

ـ أعلم ذلك. لا تقلق. ستحظى بكل ما تحتاجه غداً صباحاً. عُدْ إلى منزلك مطمئناً. وسآتي لأراك هذا المساء.

جاء. اختلى بأمي في الغرفة. كان هو الوحيد الذي يُغلق الباب حين يضاجع أمي.

Twitter: @ketab_n

نِمتُ في المطبخ على جاري العادة.

في اليوم التالي، في المدرسة، وجدتُ كلَّ ما احتاجه على طاولتي. كتب، دفاتر، أقلام، أرياش، ممحاة وورق.

في ذلك اليوم، قال المدرِّسُ أننا، لين وأنا، لا يجب أن نجلس أحدنا جنب الآخر لأننا نثرثر كثيراً. فأجلس لين في وسط الصفّ، تحيط بها فتيات، فصارت تثرثر أكثر مما كانت تفعل في السابق. أما أنا فمكثتُ وحدي قبالة طاولة الاستاذ.

خلال فترة الاستراحة، حاول «الكبار» مضايقتي. كانوا يصرخون قائلين:

ـ طوبياس، إبن المومس، إبن أستير!

تدخل المدِّرس، ضخم البنية قويّها:

ـ دعوا الصغير وشأنه. ومن يتعرّض له سيكون حسابه عندي.

تراجعوا جميعاً مُطرقين.

خلال فترات الاستراحة وحدها لين كانت تقترب مني. تُعطيني نصف فطيرتها أو كعكتها. كانت تقول:

ـ قال والداي أنه ينبغي أن أكون لطيفة معك لأنّك فقير، ولأنّ لا أب لك.

كم كنت أودّ أن أرفض الفطيرة والكعك. غير أني كنت جائعاً. ففي دارنا لا أعثر على مثل هذه المأكولات الشهية.

Twitter: @ketab_n

تابعتُ ارتياد المدرسة. وتعلّمت بسرعة فائقة القراءة والحساب.

كان المدرّسُ يزورنا باستمرار. ويُحضر لي معه كتباً لأقرأها. أحياناً، كان يحضر لي ثياباً ضاقت على ابنه البكر أو أحذية. كنتُ لا أريدها لأنني أعلم أن لين ستتعرف إليها حالما تراها، غير أنّ أمي كانت ترغمني على ارتدائها.

ـ من دونها لن تجد ما ترتديه. أتودّ مثلاً أن تذهب عارياً إلى المدرسة؟

وما كنتُ أريد أن أذهب عارياً إلى المدرسة، ما كنتُ أودُ الذهاب إليها على الإطلاق. غير أن المدرسة إلزامية. وإن رفضت الذهاب سيأتي رجال الدَرَك. هذا ما قالته أمي. وقد يسجنوها هي أيضاً إنْ لم ترسلني إلى المدرسة.

إذاً، كنتُ أذهب إلى المدرسة. وواظبتُ على ذلك طيلة ستة أعوام.

كانت لين تخاطبني قائلة:

ـ أبي لطيف جداً معك. بإمكاننا أن نحتفظ بثياب شقيقي الأكبر لشقيقي الأصغر، غير أنه يهبك إيّاها لأنّك لا أبَ بك. وأمي توافقه الرأي لأنها، هي أيضاً، لطيفة جدّاً، وتؤمن بضرورة إعانة الفقراء.

كانت القرية تعجّ بالناس اللطفاء. فلاّحون وأبناء فلاّحين كانوا يأتون باستمرار إلى دارتنا حاملين ما نسدُّ به رمقنا.

Twitter: @ketab_n

حين بلغتُ الثانية عشرة من عمري كنتُ قد أنهيتُ سنوات التعليم الإلزامي، بنتيجةٍ ممتازة. فقال ساندور لأمّي.

ـ يجب أن يتابع طوبياس تعليمه. فهو بتمتع بذكاء فوقَ الوسط.

أجابته أمي قائلة:

ـ أنت تعلم جيّداً أنني لا أملك مالاً لأنفق على دراسته.

قال ساندور:

ـ سأتدبر له مدرسة داخلية مجّانية. لقد التحق بها ابني البكر. هناك يوفرون لهم الطعام والسكن مجّاناً. أما مصروف الجيب، فسأتكفّل به أنا. قد يصبح محامياً أو طبيباً.

قالت أمي:

ـ إذا رحل طوبياس، سأبقى وحيدة. ولطالما حسبتُ انه حين يُصبح راشداً سيتمكن من توفير المال للبيت. إذا عَمِل لدى الفلاّحين.

قال ساندور:

ـ لا أريد أن يُصبح إبني فلاّحاً. لا بل أسوأ من ذلك، عاملاً زراعياً، متسوّلاً مثلك.

قالت أمي:

ـ إذا كنتُ قد احتفظتُ بهذا الطفل، فإنما لأنني أفكرّ في أيام عجزي. وتريد أن تنتزعه مني الآن وقد بدأتُ أتقدّم في السنّ.

ـ كنت أحسب انّك أبقيتِ على الطفل لأنّكِ تحبينني ولأنّكِ تحبينه.

Twitter: @ketab_n

ـ بلى، كنتُ أحبّكما، وما زلتُ أُحبكما. لكنني أحتاج لوجود طوبياس معي. لا أقوى على العيش من دونه. الآن، إنه هو مَنْ أحبّ.

قال ساندور:

ـ إذا كنتِ تحبّينه فعلاً، عليك بالاختفاء فلا يسعه أن يصبح ذا شأن بوجود أمّ له مثلك. لن تكوني سوى عبء، سوى عارٍ عليه، طيلة عمره. اذهبي إلى المدينة. وأنا أتكفّل بنفقات الرحلة. ما زلتِ شابة. وما زال بإمكانك أن تَخْدَعي بمظهرك لعشرين سنة أخرى. بإمكانك أن تكسبي من المال عشرة أضعاف ما تكسبينه من هؤلاء الفلاّحين البائسين. وأنا سأُعنى بطوبياس.

قالت أمي:

ـ لقد مكثتُ هنا من أجلك ومن أجل طوبياس. أردتُ أن يبقى بقربِ والده.

ـ هل أنتِ واثقة من أنه ابني؟

ـ أنت تعلم ذلك جيداً. كنتُ عذراء. كنتُ في السادسة عشرة من عمري. لا بدّ أنّك تذكر ذلك.

ـ ما أعرفه جيّداً، أنَّ القرية بأسرها تعتليكِ منذ سنوات.

قالت:

ـ هذا صحيح. ولكن كيف لي أن أحيا لو امتنعت عن ذلك؟

ـ لقد أعَنْتُك.

ـ أجل، ملابس عتيقة، أحذية عتيقة. ولكن كانَ علينا أن نأكل أيضاً.

Twitter: @ketab_n

ـ لقد فعلتُ ما بوسعي. لستُ سوى مدرّس في قرية ولديَّ ثلاثة أولاد.

سألت أمّي:

ـ أما عُدْتَ تحبني؟

أجاب الرجل:

ـ لَمْ أحبُّكِ يوماً. لقد افتُتِنتُ بوجهك، بعينيك، بفمك، بجسدك. لقد استوليتِ عليَّ. أما طوبياس فقد أحببته. إنهّ ملكي. سأُعنى به. ولكن يجب أن ترحلي. انتهى ما بيني وبينك. إني احبّ زوجتي وأولادي. حتى من أنجبته أنتِ، أحبّه. أما أنتِ فما عدتُ أطيقُ رؤياك. ليست سوى زلّة صبا، أفدحُ غلطة اقترفتها في حياتي.

على جاري عادتي، مكثتُ وحيداً في المطبخ. ومن الغرفة كان يتناهى إلى مسامعي ذلك الضجيج الذي أمقت. فبرغم كلّ شيء كانا يمارسان الحبّ.

كنت أصغي إليهما. أرتعد على فراش القش، تحت غطائي، وكان المطبخ يرتعدُ معي. يداي تسعيان لتدفئةِ ذراعي وفخذيَّ وبطني، ولكن عبثاً. كان يهزّني نحيب لا يقدر أن يخرج من جسمي. على فراشي القش، تحت غطائي، أدركتُ فجأةً أن ساندور والدي وأنه يريد التخلُّص مني ومن أمي.

كانت أسناني تصطكّ.

كنت أشعر بالبرد.

كنتُ أشعر بالكراهية تكبر فيَّ حيال هذا الرجل الذي يزعم أنه

Twitter: @ketab_n

أبي والذي يطلب مني الآن أن أهجر أمّي في نفسِ الوقتِ الذي يهجرها فيه.

تملكني أحساسٌ بالخواء. ضقتُ ذرعاً بكلِّ شيء، ما عدتُ أريد شيئاً. لا أن أتابع دراستي ولا أن أعمل لدى الفلاحين الذين يأتون كلّ يوم لمضاجعة أمي.

رغبة واحدة استبدّت بي: أن أغادر، أن أسير، أن أموت، فالأمر سيان عندي. كنتُ أريد أن أبتعد، أن لا أعود أبداً، أن أختفي، أن أتلاشى في الغابة، في الغيوم، أن تُمحى ذاكرتي، أن أنسى، أن أنسى.

استللتُ من الدُّرج أكبر سكاكين المطبخ، سكينَ تقطيع اللحم. دخلتُ إلى الغرفة. كان مُستلقياً، مُستلقياً فوقها. كان القمر يُنيرُ جسديهما. كان القمرُ بدراً. قمر هائل.

غرزتُ السكين في ظهر الرجل، واطبقتُ عليه بثقلي كلّه لكي يدخل فيه جيّداً ويخترق أيضاً جسدَ أمي.

بعد ذلك، غادرت.

مشيتُ في حقولِ الذرة والقمح، مشيتُ في غابة. في الاتجاه الذي تغربُ فيه الشمس، كنتُ أعلم أن ثمة بلداناً أخرى في الغرب، بلداناً تختلف عن بلدنا.

Twitter: @ketab_n

اجتزتُ قرىً متسوّلاً، سارقاً الفاكهة والخضار من الحقول. اختبىء في قطارات البضائع، وأسافر برفقة سائقي الشاحنات.

وفي غفلةٍ مني، وصلتُ إلى بلدٍ آخر، إلى مدينة كبيرة. وهناك لم أكفَّ عن السرقة والتسوّل لأنني بهما كنتُ أبقى على قيد الحياة. كنتُ أفترشُ الطرقات.

ذات يوم اعتقلتني الشرطة. وأودعت «دارة» للأحداث الذكور. وكان المكان يعج بالأحداث والأيتام والمقتلعين أمثالي.

ما عاد اسمي طوماس هورفات. لقد اخترعتُ لي اسماً جديداً مركّباً من اسم أبي واسم أمي. أصبحتُ أدعى الأن ساندور لستر، واعْتُبِرْتُ أحد أيتام الحرب.

طُرح عليَّ عدد هائل من الأسئلة، وجرى الاستقصاء في عددٍ من البلدات بحثاً عن والدين محتملين لي على قيد الحياة، غير أنَّ أحداً لم يطالب بساندور لستر.

في ذلك المأوى الداخلي، كنّا نأكل جيّداً، ونغتسل جيّداً، ونتعلّم جيداً. كانت المديرة امرأة جميلة، أنيقة، وصارمة جدّاً. كانت تريد أن نصبح رجالاً صالحين.

حين بلغتُ السادسة عشرة، استطعت أن أغادر وأن أختار مهنة. ولو اخترت أي تأهيل إضافي لكان عليَّ أن أمكث في المأوى غير أني بتُّ لا أطيق المديرة، وإلزامية المواقيت، والنوم جماعةً في غرفةٍ واحدة.

كنت أريد أن أكسب في أسرع وقت مقداراً كافياً من المال لأصبح حرّاً دون قيد.

Twitter: @ketab_n

وهكذا أصبحت عامل مصنع.

أمسِ، قيل لي في المستشفي، أنَّ باستطاعتي العودة إلى بيتي وإستئناف العمل. عندئذٍ، عدتُ إلى بيتي ورميت بالأدوية التي أعطوني إياها، الزهرية، والبيضاء والزرقاء، في جورة المرحاض.

لحسن الحظ كان يوم جمعة، وما زال أمامي يومان لاستئناف عملي. فانتهزتُ الفرصة للقيام ببعض المشتروات، وملأتُ ثلاجتي.

مساء السبت، قمتُ بزيارة يولاند، ثمَّ ما أن عدتُ إلى بيتي، احتسيت عدداً من قناني البيرة وكتبتُ.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أحسبُ

اليوم، لم يبقَ لي سوى أملٍ ضئيل. في السابق، كنتُ أبحث! كنتُ أتنقَّل طوال الوقت. كنتُ أنتظر شيئاً ما. ما هو؟ ما كنتُ أدري. لكنّي كنتُ أحسب أن الحياة لا يمكن أن تكون ما كانت عليه، أي لا شيء. كان لا بدَّ للحياة أن تكون شيئاً ما وكنتُ أنتظر أن يحصل هذا الشيء، وكنتُ ابحث عنه.

أحسبُ الأن أن لا شيء يُنْتَظَر لذا ألازم غرفتي، جالساً على الكرسي، لا أفعل شيئاً.

أحسبُ أنَّ ثمة حياة في الخارج ولكنْ، في هذه الحياة، لا يحصل شيء. لا شيءَ من إجلي.

من أجلِ الآخرين، ربما يحصل شيء ما، هذا مُمكن، غير أنه ما عاد يعنيني.

إني هنا، جالسٌ على الكرسي، في بيتي. أحلم قليلاً، لا، ليس هذا حقاً. بِمَ عساني أحلم؟! إني جالس هنا، وهذا كلّ شيء. لا يسعني أن أقول أنني على خير ما يُرام، فليسَ من أجل رغدي أبقى هنا، لا، على العكس.

Twitter: @ketab_n

أحسب أنني لا أحسنُ صنيعاً ببقائي هنا، جالساً، وأنّه، في آخر الأمر، سيتوجّب عليَّ، فيما بعد، أن أنهض. أشعر بضيقٍ غامضٍ جراء بقائي جالساً، لا أفعل شيئاً منذ ساعات، أو أيّام، لا أدري. غير أني لا أجد سبباً لكي أنهض وأفعل أي شيء. فأنا لا أرى، على الاطلاق، ماذا عساني أفعل.

طبعاً، بإمكاني أن أرتّبَ المكان قليلاً، أن أُنظّف قليلاً، بلى بإمكاني. فالمكان عندي وسخ، مُهمَل.

كان ينبغي، على الأقلّ، أن أنهض لأفتح النافذة، فالمكان ينضح برائحة الدخان، والعفن **ووخم المقفول**.

هذا لا يزعجني. أو أنّه يزعجني قليلاً ولكن ليسَ إلى الحدِّ الذي يجعلني أنهض. إني معتاد على هذه الروائح، ولا أشمّها، ولكني أقول ماذا، لو بمحض المصادفة، دخل عليَّ أحدٌ ما. . .

غير أنّ لا وجود «لأحدٍ ما».

لا أحد يدخل.

ومع ذلك، لكي أفعل شيئاً ما أقرأ الجريدة المهملة على الطاولة منذ بعض الوقت، منذ أن اشتريتها. وطبعاً لا أكلّف نفسي عناء أن أحملها بيدي. أتركها في مكانها على الطاولة وأقرأ من بعيد، ولكن لا شيء يدخل في رأسي. لذا، أكفُّ عن بذلِ أي جُهد.

على كلِّ حال، أعلم أنَّ على الصفحة الأخرى من الجريدة هناك رَجُلٌ فتيّ، ليس فتيّاً كثيراً، مثلي تماماً، يقرأ الجريدة نفسها في مغطسٍ مستديرٍ مُرَصَّع، يُطالع الإعلانات، وأسعار البورصة، باديَ

Twitter: @ketab_n

الاسترخاء، وكأس من الوسكي الجيّد على مقربة منه عند حافة المغطس. يبدو وسيماً، حيوياً، ذكياً، واسع الاطلاع.

لمجرَّد التفكير في هذه الصورة، أجدني مُرغماً على النهوض وأهرع للتقيوء في مغسلتي غير المرصَّعة، المثبَّتة ببلاهة في حائط المطبخ. وكلّ ما استفرغه يسدّ مَصْرف هذه المغسلة المشؤومة.

يذهلني منظر هذه القذارة التي يبدو لي حجمها ضعفَ ما استطعتُ أن آكله خلال الأربع وعشرين ساعة الأخيرة. وإذ أتأمّل هذا الشيء، يتنابني الغثيان مجدّداً وأهرع مغادراً المطبخ.

أخرج إلى الشارع لكي أنسى، أتنزه كما يفعل الجميع، ولكنْ ما من شيء في الشوارع، فقط ناس وعمّال لا أكثر.

بسبب مغسلتي المسدودة لا أرغبُ في الرجوع إلى البيت، ولا أرغب في السير أيضاً، لذا أتوقف على الرصيف مولياً ظهري لأحد المخازن الكبرى، أراقب الناس يدخلون ويخرجون وأفكّر أنّ الذين يخرجون يجب أن يبقوا في الداخل، وأنّ الذين يدخلون يجب أن يبقوا في الخارج، فهذا من شأنه أن يوفرّ مقداراً لا بأس به من التعب والحركة.

كانت هذه الخاطرة لتكون نصيحةً مفيدة لهم غير أنهم لن يُصغوا إليها. لذا لا أقول شيئاً، لا أحرك ساكناً، لا أشعر بالبرد هنا، في المدخل، اتمتّع بالدفء الذي يتسرّب من المخزن عبر أبوابه المشرّعة على الدوام، وأشعر تقريباً بنفسِ الارتياح الذي كنتُ أشعر به من قبل، جالساً في غرفتي.

Twitter: @ketab_n

اليوم أعاود السيرة الحمقاء إيَّاها. أنهض عند الخامسة صباحاً، أغتسل، أحلق ذقني، أعِدُّ لنفسي بعض القهوة، أغادر، أركضُ إلى ساحة «برنسيبال»، أستقلُ الباص، أغمض عينيّ، فتقفز إلى وجهي كلُّ الفظاعة التي هي حياتي.

يتوقف الباص في خمس محطّات. واحدة عند تخوم المدينة وواحدة في كل قرية نعبرها. القرية الرابعة هي القرية التي تقع فيها الفبركة حيث أعمل منذ عشرة أعوام.

فبركة لصنع ساعات الحائط.

أغطّي وجهي براحتَّي كما لو أنني نائم سوى أني أفعل ذلك لأحجب دموعي. أبكي. ما عدتُ أريد المئزر الرمادي ولا تسجيل ساعة الحضور والمغادرة، ما عدت أرغب في تشغيل آلتي. ما عدتُ أريد أن أعمل.

أرتدي المئزر الرمادي، أسجِّل ساعة حضوري، وأدخل إلى المشغل.

الآلات تعمل. وآلتي أيضاً. ليسَ علي إلاّ أن أجلس قبالتها، آخذ القطع وأضعها في الآلة وأضغط على الدوّاسة.

Twitter: @ketab_n

إنَّ فبركة ساعات الحائط هي عبارة عن مبنى ضخم يطلّ على الوادي. وجميع العاملين فيها يقطنون القرية نفسها، باستثناء قلّة، مثلي، يأتون إليها من المدينة. عددنا ليس كبيراً، فالباص شبه فارغ.

تنتج الفبركة قطع غيار ولوازمَ لمصانع أخرى. فلا أحد منا يستطيع أن يجمع ويركّب ساعة كاملة.

أما أنا فأحفر ثقباً بواسطة آلتي في قطعة معينة، الثقب نفسه في القطعة نفسها منذ عشر سنوات. هذا ما يقتصر عليه عملُنا. أن نضع قطعة في الآلة ثمَّ نضغط على الدوَّاسة.

في هذا العمل، لا نجني من المال إلاّ ما يكفي لسدِّ أودنا أو بالكاد، ولكي نجد مسكناً في مكان ما، وخصوصاً لكي نتمكن من استئناف العمل في اليوم التالي.

تبقى مصابيح النيون مضاءة باستمرار سواء كان المشغل معتماً أو منوَّراً. وموسيقى ناعمة تبثها مكبّرات صوت مثبتة في الأرجاء. ذلك أن الادارة تعتقد بأنَّ العمال يعملون على نحو أفضل على أنغام الموسيقى.

ثمة رجل قصير القامة، وهو عامل أيضاً يبيع مظاريف صغيرة تحتوي على ذرور بيضاء، نوع من المهدئات التي يحضِّرها صيدلي القرية لأجلنا. لا أدري ما هي بالضبط، غير أني أشتري بعضها أحياناً. فبفضل هذه الذرور ينقضي النهار بسرعة، ويشعر واحدنا أنَّه اقلّ تعاسة بقليل. الذرور ليست باهظة الثمن وكافة العمال تقريباً يتناولونها، والادارة تتغاضى عن ذلك، وصيدليّ القرية يجمع الأموال.

Twitter: @ketab_n

ـ لم أعد قادراً على التحمُّل!

يصطحبونه، والعمل يستمر، ثمّ يقال لنا:

ـ الأمر بسيط، انهارت أعصابه.

في المشغل، كلُّ واحد منا يمكث وحيداً مع آلته. لا يُسمح لنا بتبادل الأحاديث، إلاّ في المراحيض، ولمدة قصيرة جداً، لأن فترات تغيبنا معدودة ومحسوبة ومسجّلة.

عند خروجنا من الفبركة لا يتسع وقت واحدنا لأكثر من أن يهرع لبعض المشتروات، ثمّ يأكل، ويكون عليه أن ينام باكراً جداً لكي يستطيع أن يستيقظ باكراً.

أحياناً أسأل نفسي عمّا إذا كنتُ أحيا لكي أعمل أم أعمل لكي أحيا.

وأيّة حياة؟

عمل رتيب.

أجر بائس.

وحدة.

يولاند.

في أنحاء العالم آلاف من «اليولاندات»

جميلات، شقراوات، ويتفاوتن في درجة الغباء.

نختار واحدة ونمارسه معها.

غير أنّ «اليولاندات» لا يطردن عنكَ الوحدة.

«اليولاندات» لا يعملن طوعاً في الفبارك، بل يعملن في

Twitter: @ketab_n

المتاجر حيث أجورهن، مع ذلك، أدنى من الأجور في المصنع. غير أن المتاجر أنظف وفيها يُحتمل أن تلتقي إحداهنَّ زوجها العتيد.

في الفبركة، تكون العاملات في الأغلب ربّات أُسَر. يهرعن عند الحادية عشرة لإعداد طعام الغداء. والادارة تسمح لهن بذلك لأنهن، بأية حال، يعملن بحسابِ القطعة. عند الواحدة بعد الظهر يعدن إلى العمل مثلنا جميعاً. إذ يكون الأولاد والأزواج قد تناولوا طعامهم وعادوا إلى المدرسة أو المصنع.

الأحرى أن يأكل كلُّ واحد منهم في مقصف المصنع، غير أن ذلك باهظ التكلفة بالنسبة لهم. أما أنا فباستطاعتي أن أفعل. أطلب طبق اليوم، فهو الأقلّ ثمناً. ليسَ شهّياً غير أني لا أبالي.

بعد وجبة، الطعام، أقرأ كتاباً حملته معي من البيت أو ألعب الشطرنج. وحدي. العمال الأخرون يلعبون بالورق ولايلتفتون إليّ.

فبعد مضيِّ عشرة أعوام بينهم ما زلتُ غريباً في نظرهم.

أمسِ، وجدتُ قسيمة إشعار في علبة بريدي: إذ ينبغي أن أقصد مكتب البريد لاستلام رسالة مسجّلة. وقد كتب على الإشعار مصدر الرسالة: «دار البلدية، محكمة الجِنَح».

شعرتُ بالخوف. وراودتني فكرة الفرار بعيداً، بعيداً جداً، إلى ما وراء البحار. أمِنَ المُمكن أنّهم أفلحوا أخيراً في تعقب أثري كقاتلٍ بعد مضيِّ كلَ هذه الأعوام؟

Twitter: @ketab_n

أذهب لإستلام الرسالة. أفتحها. وأجد أنهم يستدعونني بصفة مترجم في محاكمة مُتَّهم هو لاجيء من بلادي. وستعوَّض عليَّ كافة التكاليف، وسيتم تبرير غيابي لدى إدارة المصنع.

في الموعد المذكور، أقصد المحكمة. المرأة التي تستقبلني جميلة جداً. على قدر من الجمال يجعلني أرغبُ في أن أسميها لين. سوى أنها بادية الصرامة وتبدو لي بعيدة المنال.

تسألني:

ـ أما زلت تذكر من لغتك الأمّ ما يكفي لترجمة مرافعات محاكمة؟

أقول لها:

ـ لم أنسَ حرفاً من لغتي الأم.

تقول:

ـ يجب أن تحلف وأن تقسم بأنك ستترجم ما ستسمعه حرفياً.

ـ أقسم على ذلك.

وتطلب مني أن أوقِّع على ورقة.

أسألها:

ـ أنذهب معاً لنحتسي كأساً من الشراب؟

تقول:

ـ لا، إني متعبة. تعالَ إلى منزلي. أُدعى إيڤ.

نستقل سيارتها. تقود بسرعة. وتتوقف أمام ڤيلاّ. ندخلُ

Twitter: @ketab_n

مطبخاً حديثاً. كلُّ شيء حديث في منزلها. تسكبُ لنا كأسين ونجلس في الصّالة على كنبة كبيرة.

تضع كأسها وتقبّلني على شفتيَّ. وتخلع ثيابها بتمهُّل.

إنها جميلة، أجمل من كلِّ النساء اللواتي عرفتهنَّ في حياتي.

سوى أنها ليست لين. ولن تكون لين أبداً. لا أحد سيكون لين، على الاطلاق.

بين الحاضرين في محاكمة إيڤان عددٌ كبير من مواطنيَّ. وزوجته حاضرة هي أيضاً.

كان إيڤان قد وصل إلى هذه البلاد في شهر تشرين الثاني من العام المنصرم. واستأجر شقة صغيرة من غرفتين أقام فيها إقامة ازدحام هو وزوجته وأولادهما الثلاثة.

استخدمت زوجته كمدبّرة منزل من قبل شركة التأمين مالكة المبنى. وكانت تنظّف المكاتب كلَّ مساء.

بعد بضعة أشهر، وجد إيڤان بدوره عملاً ولكنْ في مدينة أخرى، كموظف في أحد المطاعم الفخمة. وعمل هناك راضياً مرضياً.

سوى أنه كان يرسل إلى عائلته، ومرَّةً واحدة في الاسبوع، طرداً يحتوي مواداً غذائية كان يسرقها من مخزن المطعم. كما أنه متّهم بالاختلاس من صندوق المحلّ غير أنه يُنكر الأمر ولم يتمّ

Twitter: @ketab_n

التوصل إلى دليلٍ قاطع على ذلك.

خلال المحاكمة، في ذلك اليوم، لم يكن الأمر محصوراً بهذه السرقات الصغيرة. ذلك أن قضيّة إيڤان أخطر من ذلك بكثير. فخلال فترة احتجازه في سجن مدينتنا بانتظار محاكمته، عمد ذات مساء إلى ضرب حارسه وأفقده وعيه ثمَّ فرَّ من السجن هارباً إلى منزله. كانت زوجته في عملها، والأولاد نائمين. انتظر إيڤان زوجته لكي يهرب معها غير أن رجال الشرطة سبقوها إليه.

ـ حكم عليك بالسجن لمدَّة ثمانية أعوام لاعتدائك على الحارس.

ترجمتُ. فنظر إليَّ إيڤان:

ـ ثمانية أعوام؟ هل أنت واثق من أنَّك فهمتَ الكلام جيّداً؟ فالحارس لم يمت. لم أكن راغباً في قتله. إنه هنا، في صحّة جيدة.

ـ إن مهمتي هنا تقتصر على ترجمة ما أسمع.

ـ وماذا سيحلّ بعائلتي خلال هذه الأعوام الثمانية؟ أولادي؟ ماذا سيحلّ بهم.

أقول:

ـ سيكبرون.

يقتاده الحرّاس. ويُغمى على زوجته.

إثر انتهاء المحاكمة، أرافق مواطنيَّ إلى الحانة التي يرتادونها منذ وصولهم إلى هذه البلاد. إنها حانة شعبيّة صاخبة في وسط

Twitter: @ketab_n

المدينة على مقربةٍ من بيتي. نحتسي أكواب البيرة فيما نتبادل أطراف الحديث بشأن قضية إيڤان.

ـ كم يكون المرء غبيّاً حين يفكّر في الفرار!

ـ لولا فعلته تلك لاقتصرت عقوبته على بضعة أشهر من السجن.

ـ أو ربمّا كان ليتمّ إبعاده عن هذه البلاد.

ـ وكلّ هذا أفضل من السجن.

يقول أحدهم:

ـ إني أقيم في الشقة التي تقع فوق شقة إيڤان من المبنى نفسه. منذ وصولهم إلى هناك وأنا أسمع كلَّ مساء نحيب زوجته عندما تعود من عملها. تنتحبُ لساعات. في بلدتها الأم، كان لها أقارب وجيران وأصدقاء. أعتقد أنها ستعود إليها الآن. لن تنتظر إيڤان ثمانية أعوام، هنا وحيدةً مع إولادها.

فيما بعد نُميَ إليَّ أن زوجة إيڤان قد عادت فعلاً إلى البلاد. وتراودني أحياناً فكرة أن أزور إيڤان في السجن، ولكني لا أفعل.

صرت أُكثر من ارتيادي الحانة؛ أقصدها كلَّ مساءٍ تقريباً. أتعرَّف بمواطنيَّ. نحن جالسون إلى طاولةٍ طويلة. وفتاة من بلادنا تُحضِرُ لنا الشراب. تُدعى ڤيرا وتعمل هنا من الساعة الثانية من بعد الظهر حتى منتصف الليل. شقيقتها كاتي وصهرها بول من روّاد

Twitter: @ketab_n

المحلّ أيضاً. كاتي تعمل في أحد مشافي المدينة؟ وهناك حضانة أطفال حيث تترك ابنتها التي لم تبلغ من العمر سوى بضعة أشهر. أما بول فيعمل في كاراج وهو شديد الولع بالدراجات النارية.

أتعرَّف أيضاً إلى جان، وهو عامل زراعي غير مُصنَّف، يتبعني أينما ذهبت. لم يجد إلى الآن عملاً وبرأيي أنه لن يجد عملاً على الإطلاق. إنهُ دائماً متسِخ المظهر، رثّ الثياب ولا يزال يقيم في مركز اللاجئين.

سرعان ما يصبح بول صديقاً لي. وغالباً ما أمضي الأمسيات في منزله. تعود زوجته من عملها وعندئذ يكون عليها أن تُعِدَّ الطعام، وأن تغسلَ وتعتني بالطفل.

يقول بول:

ـ أكاد أغفو في مكاني ولكن عليَّ أن أنتظر حتى منتصف الليل لكي أذهب واصطحب ڤيرا.

تقول زوجته:

ـ بإمكانها أن تعود بمفردها. إنها مدينة صغيرة. لا بأسَ عليها.

أقول لهما:

ـ ناما. وأنا سأُعنى بأمر ڤيرا.

أعود إلى الحانة. أجد ڤيرا منهمكةً في جردة حسابات الليلة مع ربّ عملها. تلمحني واقفاً عند المدخل فتبتسم لي.

أقول:

Twitter: @ketab_n

ـ إنَّ بول متعب. لذا أنا مَنْ سيصطحبك في طريق العودة هذا المساء.

تقول:

ـ إنها مبادرة لطيفة. ولكنْ كان بإمكاني أن أعود إلى البيت بمفردي. غير أن بول يقول إنه مسؤول عني.

ـ كم عمرك؟

ـ ثمانية عشر عاماً.

ـ صحيح إذاً أنّك ما زلتِ طفلة تقريباً.

ـ أنتَ تُبالغ.

نخرج إلى الشارع. جاوزت الساعةُ منتصف الليل. المدينة مقفرة، يرين عليها صمت مطبق. تمسك ڤيرا ذراعي وتلتصق بي. أمام المنزل تقول لي:

ـ قبِّلني.

أقبلها على جبينها وأغادر.

أذهبُ لاصطحابها ليلة أخرى. فتشير إلى فتى لا يزال جالساً هناك، إلى طرف مائدة، إنّه الزبون الأخير.

ـ ليس من الضروري أن تنتظرني. سيرافقني أندريه في طريق العودة.

ـ أهو من بلدنا؟

ـ لا، إنه من هذه البلاد.

ـ لن نتمكنّا حتى من تبادل الأحاديث سوياً.

Twitter: @ketab_n

ـ وما أهمية ذلك؟ ما من حاجةٍ للكلام. إنه يُجيد التقبيل.

كنتُ قطعتُ وعداً لبول بأن لا أدع ڤيرا وحدها. لذا تبعتهما إلى المنزل. هناك، أمام الباب مكثا طويلاً وهما يتبادلان القُبَل.

أقولُ في سرّي أن من واجبي أن أطلع بول على ما حدث ولكنّي لا أفعل. أكتفي بالقول إنني لن أتمكنّ بعد اليوم من الذهاب لاصطحاب ڤيرا لأنني ينبغي أن أنام باكراً، أنا أيضاً، بسبب ظروف عملي.

وهكذا أصبح بول هو الذي يذهب إلى الحانة كلّ مساء وفي حضوره تنتهي قصّة أندريه.

ذات يوم، بعد ظهيرة يوم أحد، كنّا في منزل بول نتحدّث عن العطلة. بول مغتبط. فقد استطاع أن يشتري دراجة مُستعملة بفضل ما اقتصده طيلة العام. وسيذهب برفقة كاتي في رحلة في أنحاء البلاد. وسيتركان الطفل في حضانة المستشفى. أسأل:

ـ ماذا بشأن ڤيرا؟ ماذا ستفعل طيلة أسبوعين؟

تقول ڤيرا:

ـ لا يحقّ لي بالإجازات، لذا سأعمل على جاري العادة. وأنت يا ساندور، ماذا ستفعل؟

ـ سأرحل لمدة أسبوع بصحبة يولاند. سنخيم عند شاطىء البحر. أمّا في الأسبوع الثاني فسيكون بمستطاعي أن أُعنى بك.

ـ هذا لطفٌ بالغ.

Twitter: @ketab_n

يتدخل بول قائلاً:

ـ لا تشغل بالك يا ساندور. لقد طلبت من جان أن يذهب لاصطحاب ڤيرا كلّ مساء. فليس لديه ما يفعله بأية حال وسأعطيه بعض المال لتغطية ما سيستهلكه في الحانة.

تجهش ڤيرا في البكاء:

ـ شكراً لك يا بول. لم تجد من هو أفضل مني لرفقة هذا الفلاّح النتن.

تغادر المطبخ فيتناهى إلينا صوتُ نحيبها من غرفتها. نلزم الصمت. ويجتنب واحدنا أن ينظر إلى الآخر.

لدى عودتي إلى منزلي أقول في سرّي أن ليسَ هناك ما يحول دون زواجي من ڤيرا. ان فارق السنّ ليس كبيراً، ولا يبلغ حتى العشرَ سنوات. ولكن قبل ذلك ينبغي أن أتخلّص من يولاند. يجب أن اتخذ القرار بفسخ علاقتي بها، خلال الإجازة. الأمر الذي سيتيح لي اختصار زمن مدة الرحلة الكريهة، المملّة، المقزرة كرحلة العام المنصرم: ليلاً نهاراً، اسبوع كامل برفقة يولاند! ناهيكَ عن القيظ والبعوض وزحمة الناس المكتظين على مساحة المخيّم.

كما توقعت، يكاد الأسبوع لا ينتهي. يولاند تقضي سحابة نهارها مستلقيةً فوق منشفة تحت أشعة الشمس لأنّ همّها الأوحد هو أن تسمرّ بشرتها، لكي ترتدي فساتين فاتحة الألوان فتبرز لون بشرتها الملوّح. أما أنا فأقضي النهار بطوله وأنا أقرأ تحت الخيمة، وعند المساء أسير بمحاذاة الشاطىء أطول وقتٍ ممكن لكي أطمئن أن يولاند تكون نائمة حين أعود.

Twitter: @ketab_n

لا نتطرق إلى موضوع فسخ علاقتنا لأننا لا نتبادل الحديث تقريباً.

وبأية حال كنتُ أقلعتُ عن فكرة الزواج من ڤيرا. بسبب لين التي قد تصل بين لحظةٍ وأخرى.

نعودُ من الإجازة مساءَ يومِ أحد وعلى يولاند أن تستأنف عملها صباح يوم الاثنين. أعاونها على تفريغ حمولة سيّارتها الصغيرة وإيداع الخيمة والفرش داخل السقيفة. يولاند مبتهجة لأنَّ بشرتها مُلوَّحةَ كما ينبغي، والإجازة كانت كما تشتهي وتحبّ.

ـ إلى الملتقى يوم السبت مساءً.

أقصد الحانة. أتلهّف لرؤية ڤيرا. أجلس إلى إحدى الطاولات، يدنو نادل لخدمتي.

أسأله:

ـ ڤيرا ليست هنا؟

يرفع كتفيه قائلاً.

ـ لم تأتِ منذ خمسة أيام.

ـ أهي متوعّكة؟

ـ لا أدري.

أغادر الحانة. أسرعُ إلى منزل بول. إنه في الطبقة الثانية. أتسلق السلّم راكضاً، أقرع جرس الباب. أطرق الباب. تسمعني

Twitter: @ketab_n

إحدى الجارات، وتقول لي وهي تفتح بابها:

ـ لا أحد هنا. إنهم في الإجازة.

ـ الصَّبيّة أيضاً؟

ـ قلت لك أنّ لا أحد هنا.

أعود إلى الحانة. ألمح جان جالساً بمفرده إلى إحدى الطاولات. أهزُّه بعنف سائلاً:

ـ أين ڤيرا؟

يتراجع قليلاً:

ـ لمَ أراك عصبي المزاج هكذا؟ ڤيرا رحلت. اصطحبتها خلال الليلتين الأوليين ثمّ قالت لي أن لا داعي لأن آتي بعد الآن لأنها سترحل في إجازة بصحبة أصدقاء.

على الفور أفكّر في اندريه.

وأقول في سرّي أيضاً: آملُ أن تعود ڤيرا قبل عودة بول، وآمل أن تسترجع عملها!

خلال الأيام التالية، أقصد الحانة مراراً، ومراراً أيضاً أقصد منزل بول. ولن أعرف إلاّ فيما بعد ما الذي حدث.

يعود بول وكاتي من إجازتهما يوم السبت التالي. ڤيرا لم تكن في المنزل وكان باب غرفتها موصداً بالمفتاح. كانت الشقة عابقة برائحة غريبة. فتحت كاتي مصاريع النوافذ وذهبت لإحضار طفلها من الحضانة. جاء بول إلى منزلي وقصدنا الحانة سوياً حيث التقينا جان. ناقشنا الأمر فيما بيننا وأتيت على ذكر اندريه. بدا بول

Twitter: @ketab_n

غاضباً. عاد إلى منزله، وحين رأى أن الرائحة ما زالت كما كانت عليه، خَلَع باب غرفة ڤيرا. كانت جثة ڤيرا التي بدأت بالتحلّل ممددةً فوق السرير.

سيثبت تشريح الجثة أنّ ڤيرا سمّمت نفسها بتناولها أقراصاً منوّمة.

إنها أوّل من يموت بيننا.

آخرون كان لهم مصيرها بعد ذلك بوقت قليل.

روبير قَطَع شرايين معصميه في المغطس.

ألبير انتحر شنقاً تاركاً على الطاولة ورقة كتب عليها عبارة بلغتنا: «أبادلكم القرف».

ماغدا قشّرت البطاطا والخبز ثمّ جلست على أرضية المطبخ وفتحت صنبور الغاز ثمّ أدْخَلَت رأسها في الفرن.

خلال جولتي الرابعة على رواد الحانة لجَمْعِ التبرعات، يقول لي النادل:

ـ أنتم الأجانب تجمعون التبرعات دائماً لشراء أكاليل زهر وتقضون أيامكم في السير في الجنازات.

أجيبه قائلاً:

ـ لكلٍّ مِنّا أسلوبه في اللهو.

عند المساء، أكتب.

Twitter: @ketab_n

العصفور الميت

في ذاكرتي، دربٌ كثيرُ الحصى يُفضي إلى العصفور الميت.

ـ إدفني، يتوسّل إليّ وفي زوايا أطرافه المقصَّفة، ينغل العتاب كمثل ديدان.

أحتاج تراباً.

ترابٌ أسود وثقيل.

معزقة.

ليس لي سوى عينين.

عينان مغبشتان كثيبتان تبلّلهما مياه عكرة.

بادلتهما في سوق البراغيث بحفنةٍ من النقود الأجنبية «**البلا قيمة**». وكانا أفضل ما عُرِضَ عليّ في المقابل.

اعتني بهما، أفركهما وانشفهما بمنديل على ركبتيّ. بأناة، لكي لا أفقدهما.

أحياناً، أنتزع ريشة من ريش العصفور وأرْسمُ عروقاً أرجوانية على هاتين العينين اللتين هما كلّ متاعي. ويحصل أحياناً أن

Twitter: @ketab_n

أسوّدهما بالكلية. إذ ذاك تحتجب السماء ويهطل المطر.

العصفور الميت لا يحبّ المطر. يتبلّل، يتعفّن، وتنبعث منه رائحة كريهة.

في حالٍ كهذه، إذ تزعجني الرائحة، أجلسُ في مكانٍ أبعد قليلاً.

من حين لآخر، أقطع وعوداً:

ـ سأذهب لأحضر تراباً.

غير أني لا أصدق وعودي كثيراً. ولا العصفور يُصدِّقها. إنه يعرفني جيّداً.

ولكنْ لِمَ مات هنا، حيث لا شيء سوى الحصى؟

نار مستعرة كانت لتفي بالغرض.

أو نمال كبيرة حمراء.

سوى أن كلّ شيء باهظ التكلفة.

للحصولِ على علبة ثقاب عليك أن تكدّ في العمل لأشهر طويلة، والنِمالُ لا تخضع للتسعيرة الرسمية في المطاعم الصينية.

لم يتبق شيء يذكر مِمّا أملكه.

يستبدّ بي القلق حين أرى القليل مِمّا تبقى لي من المال.

في البداية، كنت أُبذِّر دون حساب، مثل الجميع، أما الآن، فيجب أن أكون حريصاً.

لن أشتري إلاّ ما هو ضروري بالفعل.

Twitter: @ketab_n

لذا من المستحيل أن أحضر تراباً ومعزقة ونمالاً وعيدان ثقاب.

لكن، بعد تفكير عميق، أقولُ لِمَ يتوجّب علي أن أشعر بأني معنيّ بشعائر دفن عصفور مجهول؟

Twitter: @ketab_n

أصبحت لا أزور بول إلاّ في ما ندر. فمقدار الحزن الذي يستبد بنا يجعلنا عاجزين عن إيجاد كلام يقوله واحدنا للآخر. نشعر، نحن الثلاثة، بعقدة ذنب لأننا ذهبنا في إجازة وتركنا ڤيرا وحدها. وشعوري، أنا، بالذنب، يفوق شعور الأخرين. كنتُ أراقب يولاند وهي تلوِّح بشرتها فيما كانت ڤيرا تنتحر. ربَّما كانت تحبني.

لا تجرؤ كاتي على الكتابة لأمّها لتخبرها أن أختها الصغيرة قد ماتت. أمّا الأمّ فتواصل الكتابة على عنوان ڤيرا وتعادُ إليها الرسائل مع عبارة «متوفاة». وتسأل والدة ڤيرا في سرّها عن معنى تلك العبارة في هذه اللغة الأجنبية.

ما عدتُ أكثر من ارتياد الحانة أيضاً لقد أصبحنا، نحن روّادها، أقلّ عدداً. مَن لم يمت منّا عاد إلى البلاد. العازبون الفتيان رحلوا إلى أبعد من ذلك! عبروا المحيط. آخرون تكيَّفوا مع الأوضاع، واتخذوا لهم زوجات من أهلِ هذه البلاد وباتوا يلازمون منازلهم في الأمسيات.

في الحانة، لا ألتقي سوى جان الذي ما زال مقيماً في مركز

Twitter: @ketab_n

اللاجئين حيث تعرّف إلى أجانب آخرين قدموا من انحاء العالم كافّة.

أحياناً، ينتظرني جان عند صحن الدَرَج أمام باب شقتي:

ـ إني جائع.

ـ ألم تأكل في المركز؟

ـ بلى، تناولت نوعاً من سليقة الحبوب، عند الساعة السادسة. لكني جائع الآن.

ـ ألم تجد عملاً بعد؟

ـ لا، لم أجد.

ـ أدخل، واجلس.

أضع طبقين على غطاء الطاولة المشمّع؛ أعدُّ خليطاً من الدهن والبيض. يسألني جان قائلاً:

ـ أليس لديك بطاطا؟

ـ لا، ليس لديّ بطاطا.

ـ من دون البطاطا، لا يكون هذا الطعام لذيذاً. ألديك خبز على الأقل؟

ـ لا، أيضاً ليس لديَّ خبز. وقتي لا يتسع للتحوّج. أنا، لديّ عمل، كما ترى.

جان يأكل.

ـ بإمكاني أن اشتري لكَ حاجياتك حين تكون في عملك، إذا شئت.

Twitter: @ketab_n

ـ لا احتاج ذلك. إني اتدبّر أمري بمفردي. منذ سنوات طويلة.

يلحُ جان قائلاً:

ـ بإمكاني أن أعاود طلاء شقتك. هذه ليست مهنتي، ولكني فعلت ذلك مراراً من قبل.

ـ لا حاجة لطلاء جديد، إنها تروق لي كما هي.

ـ إنها مقزِّزة. انظر إلى هذا المطبخ الذي يغطيه السخام، انظر إلى المرحاض، إلى الحمّام. إنها منفِّرة غير لائقة.

أتلفّت من حولي:

ـ أنت محق، ليست لائقة. ولكني لا أملك مالاً.

ـ سأفعل ذلك من أجلك دون مقابل. فقط لقاء طعامي. لمجرّد أن أعمل. لكي لا أشعر أني قُعدة بلا نفع. ليس عليك سوى أن تدفع ثمن الطلاء وأن تعطيني قليلاً من الطعام كما تفعل الآن.

ـ لا أرغب في استغلالك.

ـ بأية حال، إني أصرف أوقاتي في التنزُّه في شوارع المدينة، والتسكّع في وسطها التجاري. وشقتك كلّها قذارة.

هذا صحيح، كلُّ شيء في شقتي متّسخ. حتى إني ما عدتُ أنتبه إلى الأمر. منذ عشر سنوات والشقة بقيت على حالها كما كانت حالها يوم انتقلتُ إليها. وفي ذلك الوقت لم تكن نظيفة جدّاً.

لذا أقول لجان أن يباشر العمل في المطبخ.

Twitter: @ketab_n

أقولُ في سرّي إنَّ كلَّ شيء سيكون نظيفاً حين تأتي لين: المطبخ، الحمّام، المراحيض.

الغرف ملائمة: هناك غرفة النوم ذات الجدران المغطاة بالكتب وسرير واسع لنا نحن الإثنين. وهناك أيضاً الغرفة الصغيرة التي استخدمها الآن كغرفةٍ للمهملات وسأجعلها غرفة مكتب أضع فيها طاولة وآلة كاتبة وأوراقاً بيضاء

يجب أن أفكّر في شراء آلة كاتبة وأوراق للآلة الكاتبة وشرائط الآلة الكاتبة.

أما في الوقت الحاضر، فأكتب بقلم رصاص على دفاتر مدرسية.

جان يعمل جيّداً وبسرعة. ما عدتُ أتعرّف إلى شقتي. باستطاعة لين أن تأتي الآن لن أشعر بالخجل.

اشتري مناشف جديدة للحمام والمطبخ. أرتبها في الدُرْج.

أدفع لجان ما أمكنني دفعه. يبدو مسروراً جداً، أكثر مني، حيال العمل الذي أنجزه. ويودّ أن يجدّد طلاء الغرفتين غير أن ذلك ليس ضرورياً على الإطلاق.

جان يبدو سعيداً:

ـ إنها المَّرة الأولى التي أتمكّنُ فيها من إرسالِ بعض المال لزوجتي. المال الذي أعطيتني إيّاه.

Twitter: @ketab_n

ـ جان أيّها المسكين. لم يكن مالاً وفيراً.

ـ إنّه يساوي في بلادنا عشرة أضعاف ما يساويه هنا. ربما تمكّنت زوجتي من شراء أحذية وثياب خريفية للأولاد. يجب أن يكون مظهرهم حسناً عند دخول المدارس.

أسأل:

ـ والآن كيف ستتدبّر أمرك دون عمل؟

ـ لا أدري يا ساندور.

ـ من الأفضل أن تعود إلى ديارك.

ـ لا أستطيع. سوف تسخر مني القرية بأسرها. لقد وعدتُ الجميع بثروة. حبّذا لو تساعدني يا ساندور. أن تتدبّر لي زبائن. أنت تعرف عدداً لا بأس به من الناس. وها قد رأيت كيف أني أجيد طليَ الجدران، كما أجيدُ أموراً أخرى. أن أُعنى بحديقة، على سبيل المثال. جنينة خُضار أو جنينة أشجار حمضيات. مقابل القليل من المال. والقليل من الطعام. فإن استطعت أن احتفظ بمنامتي مجّاناً في المركز، سيكون بإمكاني أن أرسل لزوجتي كل المال الذي أكسبه.

أعثر لجان على بعض الأعمال الموقتة غير المنتظمة ولكنّي لا أُفلح في إبعاده عني. يأتي إلى منزلي كلّ يوم تقريباً. يُعيقني عن الكتابة، يعيقني عن النوم. يقرأ عليَّ رسائل زوجته ورسائل أولاده. يحدّثني عن حنينه لبلده، عن الشقاء الذي يعانيه لاضطراره إلى العيش بعيداً عن أهله.

Twitter: @ketab_n

يكاد لا يكفّ عن البكاء. وما من شيء يُعزّيه إلا الشحم المطبوخ والبطاطا. حين تمتلىء معدته يذهب للنوم في مركز اللاجئين، في بهوٍ مَليءٍ بالأسرّة المتراكبة حيث اعتاد العيش، وحيث جعلت منه الأقدمية زعيماً.

عندما يُغادر أخيراً، أنصرفُ إلى الكتابة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هُمْ

إنها تمطرُ. تمطرُ رذاذاً بارداً يهطل على البيوت والأشجار والقبور. عندما يأتون لزيارتي، يسيل المطر على وجوههم المتحلّلة السائلة. ينظرون إليَّ ويصبح البردُ صقيعاً، ولا تعود جدراني البيضاء ملاذاً لي. لم تحمني الجدرانُ يوماً. صلابتها ليست سوى وهم، وبياضها مُدنَّس.

أمسِ، حظيتُ ببرهة غبطةٍ مفاجئة، بلا سبب. تقدَّم نحوي خَلَل المطر والضباب، كان يبتسم، يحوم فوق الأشجار، يرقص أمامي، يحوطني.

عرفته.

كانت غبطة زمانٍ غابر حين كنا لا نزال، أنا والطفل، شخصاً واحداً. كنتُ هو، لم أبلغ السادسة من عمري وأسهو حالماً في الحديقة عند المساءِ مستغرقاً في تأمُّل القمر.

الآن، أشعر بأنني متعب. إنهم هم الذين يأتون في الليل ويتعبونني على هذا النحو. كم سيكون عددهم هذا المساء؟ واحد بمفرده؟ جماعة؟

Twitter: @ketab_n

فقط لو كانت لهُم وجوه. سوى أنهم، جميعاً، غائمون غامضو الملامح. يدخلون. يمكثون واقفين يرمقونني بنظراتهم ويقولون:

ـ لِمَ تبكي؟ تذكرّ.

ـ ماذا؟

فيضحكون.

فيما بعد، أقول:

ـ إني مُستعدّ.

أشقُّ قميصي عن صدري ويرفعون أيديهم الكثيبة الشاحبة.

ـ تذكرّ.

ـ ما عدتُ أدري.

ترتفع الأيدي الكئيبة الشاحبة ثمّ تنخفض. أحدهم ينتحب خلف الجدران البيضاء:

ـ تذكرّ.

ضباب رمادي خفيف ينتشر فوق البيوت، فوق الحياة. طفل جالسٌ في الفناء يحدق في القمر.

كان في السادسة من عمره، وكنت أحبّه.

ـ أحبُّك، أقول له.

فيرمقني الطفلُ بنظرات صارمة.

Twitter: @ketab_n

ـ إيُّها الصبي الصغير، ! إني قادم من بُعْدٍ قُل لي لم تحدِّق في القمر؟

ـ ليس القمر، أجاب الطفل منزعجاً، ليس القمر، إني أحدِّق في المستقبل.

إني قادمٌ منه، أقول له برفْق، وليسَ فيه سوى حقولٍ جرداء وموحلة.

ـ أنت تكذب، أنت تكذب، صاح الطفلُ قائلاً، هناك مال وضوء وحب. وهناك حدائق ترفلُ بالورد.

ـ إني قادمٌ منه، قلت مردِّداً برفق، وليس فيه سوى حقول جرداء موحلة.

يعرف الصبيّ فجأة من أكون فيجهش في البكاء.

كانت تلك آخر ما ذرفته عيناه من دموع حارقة. ثمَّ راح المطرُ يهطل عليه أيضاً. واحتجب القمر. وجاء الليلُ والصمت إليَّ ليقولا:

ـ ماذا تفعل به؟

Twitter: @ketab_n

إني متعب. مساء أمس كتبتُ مجدَّداً وأنا أحتسي البيرة. العِبارات تدور في رأسي. أحسب أن الكتابة ستدمّرني.

على جاري العادة، أستقلّ الباص. أغمض عينيّ. نصل إلى القرية الأولى.

تأتي المرأة التي توزع الصحف لتأخذ الرزمة. فعليها أن توزع هذه الصحف على سكان القرية كافة قبل السابعة صباحاً.

امرأة شابة تصعد إلى الباص حاملةً طفلاً بين ذراعيها.

منذ بداية عملي في الفبركة لم أر أحداً يستقلّ الباص من هذه المحطّة.

اليوم، صعدت امرأة إلى الباص. وهذه المرأة تُدعى لين.

لا، ليست لين أحلامي، ليست لين التي كنتُ أنتظرها، بل لين الحقيقيّة، تلك اللعنة الصغيرة التي تُدعى لين والتي أفسدت عليَّ طفولتي. تلك التي كانت تلاحظ انني أرتدي ثياب وأحذية شقيقها البكر وتُخبر الجميع بذلك. تلك التي كانت تمنُّ علي أيضاً بكسرة خبز أو قطعة بسكويت كنت أود لو أرفضها. غير أني كنت أشعر

Twitter: @ketab_n

بالجوع خلال فترات الاستراحة بين ساعات الدرس.

كانت لين تقول إنّ الواجب يقضي بمساعدة الفقراء، هذا ما كان يقوله لها والداها. وأنا، كنتُ الفقير الذي اختارته لين لنفسها.

أتقدَّم إلى وسط الباص لكي أرى لين جيّداً. لم أرها منذ خمسة عشر عاماً. لم يتبدَّل مظهرها كثيراً. ما زالت شاحبة ونحيلة. شعرُها يبدو غامضاً أكثر مما كان عليه فيما مضى، وقد ربطته فوق مؤخّر رقبتها بسِيرٍ مطّاط. لا أثر للماكياج على وجه لين، وثيابها ليست أنيقة جدّاً ولا على الموضة. لا، ليس في مظهر لين ما يشير بملمحٍ من الجمال.

تنظر ساهمةً عبر النافذة، ثمَّ تشملني، لهنيهات، بنظرةٍ منها غير أنها سرعان ما تُغضي ملتفتةً إلى البعيد.

إنها تعلم بالتأكيد أنني قتلتُ أبي، أباها، أبانا، وربما قتلتُ أمّي أيضاً.

لا ينبغي أن تتعرف لين إليّ. فقد تفضح أمري كقاتل. لقد مضى على ذلك خمسة عشر عاماً، فلا بدَّ أن القضية سقطت بمرور الزمن. ثمَّ ما الذي تعرفه هي؟ أو تعلم حتَّى أنَّ والدها هو والدي أيضاً؟ أن من كان والدها هو والدي أيضاً؟ تُراه مات؟

كان السكين طويلاً لكنَّه انغرز بصعوبة كبيرة في جسم الرجل. لقد ضغطتُ بكلّ ما أوتيتُ من قوَّة سوى أني كنت لا أزال في الثانية عشرة من عمري، سيئ التغذية نحيلاً أكادُ لا أزنُ شيئاً. ولم تكن لي أية معرفة بالتركيب العضوي للجسم البشري وقد أكون أخطأت في إصابة أيّ من أعضائه الحيوية.

Twitter: @ketab_n

تتوقف الحافلة أمام الفبركة، نترجّل.

المرشدة الاجتماعية تنتظر لين، وترافقها إلى الحِضانة.

أدخلُ قاعة المَشْغَل، أدير آلتي، فتدور كما لم تفعل من قبل، إنها تُنشِدُ، إنها تهتفُ: «لين هنا، وصَلَتْ لين!»

في الخارج، تتراقص الشجرات، والهواء يصفر، وتتراكض الغيوم، والشمسُ تشعّ، الطقس جميل مثل صباح ربيعي.

إذاً كانت هي لين التي أنتظرها! ما كنتُ أدري. كنتُ أحسب أنني أنتظرُ امرأة مجهولة، جميلة، من صنع الخيال. لكنَّ التي وَصَلت هي لين الحقيقية بعد خمسة عشر عاماً من الفراق. نلتقي مجدّداً بعيداً عن بلدتنا الأمّ، في بلدة أخرى، في بلد آخر.

تمضي فترة ما قبل الظهر بسرعة فائقة. وعند الظهر أقصد مقصف الفبركة لتناول طعام الغداء. نقف في الصفِّ، ونتقدّم ببطء. لين تقف أمامي. تأخذ كوباً من القهوة ورغيفَ خبز. تماماً كما كنتُ أفعل حين قدِمتُ إلى هذه البلاد ولم أكن قادراً على تناول أطعمة هذا المطبخ الأجنبي. كان كلّ شيءٍ يبدو لي عديم الطّعم تافهاً.

تختار لين طاولة منعزلة. فأجلسُ إلى طاولة أخرى، قُبَالتها. أنكبُّ على تناول طعامي دون أن أرفع عينيَّ نحوها. أخاف أن أنظر إليها. وعندما أنهي طعامي، أنهض لأعيد الصينية وأذهبُ لجلبِ كوبٍ من القهوة. وحين أمرّ بمحاذاة طاولة لين، ألقي نظرة خاطفة على الكتاب الذي تقرأه. ليس مكتوباً بلغةِ بلادنا ولا بلغةِ هذه البلاد. فأقول في سرّي إنهُ كتاب باللغة اللاتينية.

أنا أيضاً أتظاهر بأنني مستغرق في القراءة، سوى أني لا

Twitter: @ketab_n

أستطيع التركيز على ما أقرأ، لا أستطيع إلاّ أن أحدّق في لين. حين ترفع عينيها، أغضي بسرعة.

أحياناً، تستغرقُ لين في النظرِ عبر النافذة ساهية، وأدرك أن شيئاً ما في داخلها قد تبدّل برغم كلّ شيء: نظرتها. لأنّ لين التي عرفتها في طفولتي كانت لها نظرات ضاحكة مبتهجة، أما لين التي أراها الآن فلها نظرة كابية، كئيبة، كنظرات كلّ اللاجئين الذين أعرفهم.

عند الواحدة نعود إلى الفبركة. لين تعمل في المشغل الذي يقع في الطبقة التي تعلو مباشرة الطبقة التي أعمل فيها.

عند المساء، حين نخرج من الفبركة، يكون الباص في انتظارنا. أرى لين راكضةً نحو الحِضانة وتعود حاملةً طفلها. تجلس لين بقربِ السائق، وأجلس على مقعدٍ في الخلف ليس بعيداً منها.

تترجّلُ لين من الباص في البلدة التي استقلّته منها هذا الصباح. أترجّل أنا أيضاً؛ أتبعها. تدخل إلى دكان السمانة في البلدة، فأفعل مثلها. تشير بإصبعها إلى ما تريد، حليب، معجّنات، مُربّى. إنها تجهل إذاً لغة هذه البلاد. أو أنها أصبحت بكماء، تلك الفتاة الصغيرة الثرثارة التي عرفتها في طفولتي.

أشتري علبة سكائر وأتابع السير خلف لين في الشارع. لا بدّ أنها تنبّهت إلى وجودي هذه المرّة. لكنها تتجاهل الأمر. تدخل دارةً من طبقتين بقرب الكنيسة. أتلصّصُ عبر نافذة الطبقة الأرضية. هناك نور. رجل جالسٌ إلى طاولة، منكبٌّ على بضعة كتب. باقي الشقّة غارق في العتمة.

Twitter: @ketab_n

اكتشفت ممرّاً يؤدي إلى الغابة. أعبرُ جسراً صغيراً من الخشب وأسلك الدربَ الذي يُفضي بي إلى فسحة وراءَ البيوت. أجلسُ على العشب وأحاول أن أهتدي بعينيّ إلى بيتِ لين من بين البيوت. أحسبُ أنني اهتديتُ إليه غير أني غير واثق من ذلك. هناك نهر وحدائق تفصلني عن البيوت. أرى ظلالاً تتحرك داخل الغرف الخلفية ولكنّي لا أرى المزيد، ولا أتمكّن من التعرّف إلى أحد.

أقولُ في سرّي انني إذا أردت أن أرى شيئاً يجب أن أشتري منظاراً.

أعود أدراجي إلى واجهة المبنى. ما زال الرجل جالساً إلى طاولته. وأرى لين أيضاً جالسةً على كنبة، تُرضع طفلها من الرضّاعة. لا أدري إذا كان الطفل صبياً أم فتاة، غير أني أعلم الآن أنّ للين زوجاً.

أقرّر أن أعود بالباص. أنتظرُ طويلاً. لأنّ الباصات تعمل بوتائر أكثر فأكثر تباعداً كلّما تقدّمت ساعات الليل: لذلك حين أصل إلى بيتي تكون الساعة قد قاربت العاشرة مساءً.

جان ينتظرني أمام الباب. لقد غفا على درجاتِ السُلّم.

يسألني:

ـ أين كنتَ؟

أقول:

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا؟ وما شأنك أنتَ؟ ماذا تفعل هنا؟ ألن تكفّوا عن إزعاجي، أنتم جميعاً؟

ينهض جان، ويقول لي بصوت خفيض:

ـ لقد انتظرتك. إنّهم يحتاجون مترجماً.

أفتح الباب؟ أدخلُ إلى المطبخ وأقول:

ـ هيا إذهب. إنها ساعة متأخّرة. أريد أن أنام.

يقول:

ـ إني جائع.

أقول له:

ـ آخِرُ هَمّي.

أدفعه باتجاه السلّم، لكنّه يردف قائلاً:

ـ إيڤ تريد أن تراكَ مجدّداً بخصوص المحاكمة المقبلة. إنها ترعى الأجانب واللاجئين وكلَّ الأمور التي تعنينا. إنها لا تكفُّ عن السؤال عنك.

أقول:

ـ قُلْ لها إنني ميت.

ـ ولكنّ هذا غير صحيح يا ساندور أنت لستَ ميتاً.

ـ هي ستفهم.

يسأل جان:

ـ لمَ أصبحت لئيماً إلى هذا الحدّ يا ساندور.

Twitter: @ketab_n

ـ لستُ لئيماً، بل متعب. دعني وشأني.

أشتري منظاراً. واشتري أيضاً درّاجةً هوائية. هكذا لن اضطرّ بعد اليوم أن أنتظر الباص. وسأتمكّن من الذهاب إلى بلدةِ لين متى يحلو لي، نهاراً أو ليلاً. فهي لا تبعد أكثر من ستة كيلو مترات عن المدينة.

ما عدتُ أُلاحق لين. بعد خروجي من الفبركة أستقل الباص إلى المدينة. أما هي فتنزلُ عند محطة بلدتها ولا تعودُ تراني.

إلاّ في المقصف.

ولا أذهبُ لرؤية لين إلاّ فيما بعد، تحت جنحِ الظلام، بواسطة منظاري. وما أراهُ هناك لا يُذكر.

تضع لين طفلها في سريره الصغير، ثمّ تذهب هي وزوجها ليَنَاما في السرير الكبير؛ ويطفئان الضوء.

أحياناً تطلُّ لين من النافذة وتدخّن سيكارة وهي تنظرُ إليّ، لكنها لا تراني، لا ترى سوى الغابة.

كم أودّ أن أقول لها إنني هنا، أراقبها، وأرعاها في هذا العالم الغريب. أودّ أن أقول لها أنها ينبغي ألاّ تخاف لأنني هنا، أنا، أخوها، وانني سأحميها من الأخطار كافة.

لقد قرأتُ، أو سمعت، في مكانٍ ما، أنّ الزواج المثالي لدى الفراعنة كان الزواج بين الأخ وأخته. وأنا أيضاً أؤمن بذلك وإن

Twitter: @ketab_n

كانت لين أختاً لي غير شقيقة. ولكنْ ليس لدي سواها.

يجيء يوم السبت. ويوم السبت يتوقف العمل في الفبركة. فأركبُ دراجتي قاصداً بلدة لين. أراقب الزوجين تارةً من أمام البيت وتارةً من ناحية الغابة. أرى لين ترتدي ثيابها وتحمل حقيبة يدها. وتقصد موقف الباص. إنها ذاهبة إلى المدينة.

أسير بدرّاجتي خلف الباص. في الطرق المنحدرة أتمكّن من اللحاق به. نَصلُ إلى ساحة «برنسيبال» في نفس الوقتُ. تترجّل لين. تدخلُ صالون مزيّن. أما أنا فأجلس في حانةٍ قرب النافذة المطلّة على الساحة، وأنتظر.

في مُضيّ ساعتين تعود لين محمّلةً بمشتروات، من كلّ نوع. لقد بدّلت تسريحتها. أصبح شعرها قصيراً مجعّداً مثل يولاند، أو تقريباً مثل شعر يولاند. أقولُ في سرّي إنه ينبغي أن أصارحها بأن هذه التسريحة لا تُلائم مظهرها على الاطلاق.

كما هو متوقّع، تستقلّ الباص. أتبعها على درّاجتي. أرافقها إلى بلدتها، ولكنّ الطريق طَلْعة فأصلُ متأخّراً عنها بعض الوقت.

يوم السبت هذا، أنسى زيارتي المعهودة ليولاند. وعلى الرغم من ان لا شيءَ مما أراه يستحقُ عناء أن يُرى، أمكث مع لين حتى الثامنة مساءً. وعندما أصل إلى بيتي أدركُ أنني لم أشترِ طعاماً، وأنّ ثلاّجتي فارغة. ما زال بإستطاعتي إن أدقّ بابَ يولاند غير أني أفضّل أن أذهب لتناول الطعام في الحانة التي يرتادها أبناء بلدي.

Twitter: @ketab_n

بالطبع، ألتقي جان هناك. إنَّه يحتسي كوباً من البيرة محاطاً بلاجئين آخرين لا أفهم لغتهم.

يقول لهم جان:

ـ إنَّه أعزّ الأصحاب، إجلس يا ساندور. فهؤلاء جميعهم أصحابي.

أصافح جميع أصحابه، ثمَّ أسأل جان:

ـ كيفَ تتفاهمون؟

يضحك جان.

ـ إنه أمر بسيط. هناك الإيماء.

يومئُ للنادل مشيراً بثماني أصابع:

ـ بيرة!

يميلُ عليَّ هامساً:

ـ قُل لي، ستدفع ثمن هذه الأكواب الثمانية، أليس كذلك؟

ـ أجل، بالطبع. ومعها ثمانية أطباق من النقانق والبطاطا.

يُحضر النادل أطباق النقانق. ويعلو تصفيق مدعويَّ عندما أضع حافظة نقودي على الطاولة. يأكلون بصخب ويطلبون البيرة كوباً تلو كوب.

في تلك اللحظة بالذات ظهرت يولاند أمامي. أراها كأنَّ ضباباً يحجبها عن أنظاري. لقد أفرطتُ في الشراب ودخان السكائر يعبق في أرجاء الصالة.

Twitter: @ketab_n

أقول ليولاند:

ـ اجلسي.

ـ لا. تعال. لقد أعدَدْتُ لك طعاماً.

ـ لقد تناولتُ طعامي. اجلسي وكُلي قطعة نقانق. إنها جلسة أصدقاء.

تقول:

ـ أنت ثَمْل. أتودّ أن أصحبك إلى البيت؟

ـ لا يا يولاند، أريد أن أبقى هنا. وأن أشرب المزيد.

تقول:

ـ منذ أن وصل مواطنوك إلى هذه البلاد، وأنتَ لم تَعُد أنت.

ـ لا، يا يولاند، أنا لم أعد أنا. ولا أدري إذا كنتُ سأعود أنا ذات يوم. ولكي نعرف، ربما كان علينا أن يكفّ واحدنا عن رؤية الآخر لبعض الوقت.

ـ كم مِنَ الوقت؟

ـ لا أدري. بضعة أسابيع أو بضعة أشهر.

ـ حسناً. سأنتظر.

أصبحت المسألة الجوهرية الآن هي التالية: ما هي الطريقة التي تجعلني أتعرّف ب لين؟

Twitter: @ketab_n

ما يُثير حَيْرتي أنَّ لا رئيس المشغل ولا المرشدة الاجتماعية يطلبان مساعدتي كمترجم في حال حصول أي مشكلة. ربَّما لأنَّ عمل الفبركة بسيط جدّاً ويمكن شرحه لأصمّ أبكم.

للمرَّة الثانية أقول عن لين أنها ربَّما كانت بكماء. لأنَّها نادراً ما تتكلَّم. بل، والحقّ يُقال، إنها لا تكلّم أحداً على الاطلاق.

لا يبقى إلاّ أن أتقرّب منها في المقصف.

عادةً لا أجد صعوبة في التقرّب من النساء. ولكنْ مع لين، أشعر بالخوف. أشعر بالرعب لمجرّد احتمال أن تصدّني.

ذات يوم، أحزم أمري. وحين أمرّ بمحاذاة طاولتها حاملاً كوب القهوة، أتوقّف. أسألها بلغتنا الأم:

ـ أترغبين في كوبٍ آخر من القهوة؟

تبتسم.

ـ لا، شكراً، ولكنْ اجلس. لم أكن أعلم أنّك أحد مواطنيّ. ألهذا السبب تبِعتني؟

ـ أجل، لهذا السبب. أشعر بأنني معنيّ بكلّ الوافدين من بلادي. أُحبّ أن أمدّ لهم يدَ العون.

ـ لا اعتقد أنني أحتاج عونَك. مَنْ أنت؟

ـ لاجيء عتيق. أعيش هنا منذ خمسة عشر عاماً. وأدعى ساندور لستر.

أحبّ إسم ساندور. والدي يُدعى ساندور.

ـ كم يبلغ والدك من العمر؟

Twitter: @ketab_n

ـ ما الأهمّية في ذلك؟ لا بد أنهّ أصبح على مشارف الستين. لمَ تسأل؟

أجيب:

ـ والداي أنا ماتا أثناء الحرب. وكنتُ أسأل نفسي عما إذا كان والداك قد توفيا.

ـ لا إنّهما على قيد الحياة. آسفة من أجلك، بشأن والديك يا ساندور. أدعى كارولين غير أني لا أحبّ هذا الإسم. زوجي يسمّيني كارول.

ـ أما أنا فسأسمّيك لين.

تضحك:

ـ في طفولتي كانوا يسمّونني لين!

ثمّ تسألني:

ـ كيف تستطيع أن تتحمّل هذه البلاد؟

ـ نعتاد الحياة فيها.

ـ لن أقدر على ذلك. أبداً.

ـ ومع ذلك يجب أن تعتاديها. أنتِ لاجئة. أي انّك قدِمتِ إليها رغماً عنك. ولن يكون بإمكانك أن تغادريها.

ـ لا، أنا لست لاجئة. لقد أرسل زوجي في بعثة للعمل في هذه البلاد. إنه عالم فيزياء. سنمكث سنة هنا ثمّ نعود إلى ديارنا. وهناك، سأنهي تعليمي وسأدرّس اليونانية واللاتينية. إلى أن يحين وقت ذلك، أي خلال عام، أعمل في هذه الفبركة. إن المنحة التي

Twitter: @ketab_n

تُصرَف لزوجي لا تغطي نفقاتنا. كان بإمكاني أن أمكث في بلادي غير أن زوجي لم يُرِد أن يحيا بعيداً عن الطفل. ولا بعيداً عنّي.

أرافق لين حتّى آلتها:

ـ لا تخافي. سنة واحدة وتمضي. أنا أعمل هنا منذ عشر سنوات.

ـ أمر فظيع. لو كنتُ أنتَ لكان ذلك فوق طاقتي واحتمالي.

إنه فوق طاقة واحتمال الجميع، ومع ذلك لا أحد يموت بسببه. بعضهم يُجَنّ، ولكن نادراً ما يحصل ذلك.

عند المساء، أنتظر لين في الباص. تَصِلُ حاملة طفلها. أسألها عَما إذا كان صبيّاً أم بنتاً.

ـ إنها طفلتي الصغيرة. عمرها خمسة أشهر وتدعى ڤيوليت. أرجوك كفّ عن ملاحقتي.

في اليوم التالي، في مقصف الفبركة أقصد طاولة لين حاملاً صينية غدائي. أجلس قبالتها؛

ـ لم أعد ألاحقك في الشارع. ولكنْ قد يكون بإمكاننا أن نتناول الطعام سوياً.

ـ كلَّ يوم؟

ـ لِمَ لا؟ نحن من بلدٍ واحد. ولن يُثير الأمرُ دهشة أحد.

Twitter: @ketab_n

ـ زوجي يَغَار.

ـ لن يعرف زوجك بالأمر. حدِّثيني عنه.

ـ يُدعى كولومان. ويَعَملُ باحثاً. يقصد المدينة كلّ صباح، ولا يعود منها إلاّ في ساعة متأخرة من الليل. وفي المنزل يتابع أبحاثه لساعات طويلة.

ـ وأنتِ؟ ألا تضجرين هنا؟ أنت لا تغادرين المنزل ولا أصدقاء لكِ.

ـ كيف عَلِمت؟

أضحك:

ـ لقد تَبْعِتُك. منذ أسابيع وأنا أراقبك.

ـ حتّى مساءً؟ وفي بيتي؟

ـ أجل، من خلال النافذة، بالمنظار. أرجو المغفرة.

تحمرّ وجنتا لين حياءً وتسارعُ إلى القول:

ـ لا يتسع وقتي للضجر مع كلّ ما أقوم به من تدبير شؤون المنزل إلى رعاية طفلتي، إلى المشتروات والعمل في المصنع.

ـ ألا يُساعدك زوجك؟

ـ وقته لا يتسع لذلك. بعد ظُهر يوم السبت يُعنى بالصغيرة لكي يتسنى لي أن أشتري ما نحتاجه من المدينة. إذ لا يعثر المرء في البلدة على كلّ ما يحتاجه.

يقاطع كلامها:

Twitter: @ketab_n

ـ حتّى أن المرء لا يعثر على مزيّن شعر هنا. إنه لمؤسف حقاً، ما صَنَعْتِه بشعرك. فهذه التسريحة لا تلائم مظهرك على الاطلاق.

تغضب:

ـ هذا ليس من شأنك.

ـ أنتِ محقة. أعذريني. تابعي.

ـ أتابع ماذا؟

ـ زوجك يُعنى بالطفلة في فترة ما بعد الظهيرة كلّ يوم سبت...

ـ القول إنه يُعنى بها من باب المبالغة. الأحرى أنه ينقلها إلى غرفة مكتبه وينصرف إلى عمله بقربها. وإذا بكت كثيراً يهرع ليسقيها شيئاً أعدّه بنفسي قبل أن أغادر. هذا كلّ شيء. إنه لا يُقمّطها ولا يهدهدها، بل يدعها تبكي. ويزعم إنّ البكاء جيّد لصحة الأطفال.

تُطرِقُ لين وقد امتلأت عيناها بالدموع.

إثر برهة من الصمت، أقول:

ـ لا بدّ أنّ كلّ هذه الأمور تزيد الصعوبات صعوبةً بالنسبة إليك.

تهزُّ رأسها:

ـ هذه الحال لن تدوم. سنعود إلى بلادنا في مطلع الصيف.

ـ لا!

انطلقت صيحتي هذه على الرغم مني. تقول لين مذهولة:

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا تقول؟ لا؟

ـ أعذريني. بالطبع ستعودون. غير إني لن أعتاد فكرة رحيلك.

ـ ولمَ؟

ـ إنها حكاية طويلة. أنتِ تشبهين فتاة صغيرة هجرتها منذ خمسة عشر عاماً.

تبتسم لين:

ـ أدرك جيداً معنى كلامك. أنا أيضاً كنتُ فيما مضى مولعةً بصبيّ من عمري. وذات يوم اختفى. ذهبَ إلى المدينة برفقة أمّه. ولم يَرَهما أحدٌ منذ ذلك الحين.

ـ لا الصبيّ ولا أمّه.

ـ أجل، لا الصبيّ ولا أمّه. الحقيقة أنّ أم الصبيّ كانت امرأة سيئة السمعة. إني اذكر جيّداً ذلك اليوم الذي رحلا فيه، لأنّ أبي تعرّض لاعتداء مساءَ ذلك اليوم في طريق عودته إلى البيت. لقد هاجمه متشردٌ قرب المقبرة، وطعنه بخنجر واستولى على حافظة نقوده. تمكن أبي من السير حتى المنزل، وعالجت أمّي جرحه. لقد أنقذت حياة أبي.

ـ ولم تري طوبياس منذ ذلك الحين؟

ترمقني لين بنظرات ثابتة في عينيّ:

ـ لم أقل لك إنه كان يُدعى طوبياس.

يواصل واحدنا التحديقَ في عيني الأخر.

Twitter: @ketab_n

ثمَّ أبادر، أنا، إلى القول:

ـ أرأيتِ يا لين، لقد عرفتك على الفور. في أوّل يوم صعدتِ فيه إلى الباص.

وجه لين يزداد شحوباً، ثمّ تهمسُ قائلةً:

ـ طوبياس، أهو أنت؟ لمَ بدّلت اسمك؟

ـ لأني بدّلتُ حياتي. ثمّ إني كنتُ أجد اسمي سخيفاً.

في صبيحةِ اليوم التالي تصعد لين إلى الباص. تجلس بجانبي على المقعد الأخير. نكاد نكون وحدنا في الباص فالمسافرون قلّة. لا أحد ينظر إلينا، لا أحد يعيرنا انتباهاً.

تقول لي لين:

ـ لقد تحدّثت بشأنكم... بشأنِكَ إلى زوجي، كولومان. وهو سعيد لأنني لستُ وحيدة في المصنع. لقد كذبت عليه قليلاً. فلم أحدّثه عن أمّك. قلتُ إنّك نسيبٌ بعيدٌ لي قدمتَ من العاصمة وإنّك من أيتام الحرب. إنّه يودُّ أن يتعرّف بك، وان أدعوكَ لزيارتنا في المنزل.

أقول:

ـ لا، ليسَ الآن. يجب أن ننتظر قليلاً.

ـ ننتظر ماذا؟

ـ ريثما نتعرّف ببعضنا البعض مجدَّداً نحنُ الأثنين.

عند الظهر نتناول طعام الغداء سوياً. كلَّ يوم ظُهراً. عند الصباح نستقل الباص سوياً. كلّ صباح. وكلّ مساءٍ أيضاً.

Twitter: @ketab_n

هناك فقط عطلة نهاية الأسبوع التي تشعرني بالأسى لأنَّ العمل يتوقف فيها. أطلب من لين أن تسمح لي بمرافقتها خلال فترة القيام بمشترواتها يوم السبت. أنتظرها عند ساحة «برنسيبال». وأرافقها في جولتها على المحال. أساعدها في حَمْلِ الرُّزم ممّا تشتريه. ثمَّ نقصد حانة اللاجئين لاحتساءِ كوبٍ من القهوة. بعد ذلك تستقل لين الباص في طريق عودتها إلى البلدة، إلى زوجها، إلى طفلتها. ولا ألحقُ بها.

ما عدتُ أُطيق رؤيتها نائمةً بجانبِ زوجها كلّ مساء.

يبقى أن أملأ فراغ يوم الأحد. أقول ل لين انني سأكون في انتظارها في الثالثة من بعد ظهر كلِّ يوم أحد، عند الجسر الخشبيّ الصغير الذي يؤدّي إلى الغابة. فإن أمكنها أن تصحَب طفلتها في نزهةٍ أكون في انتظارها.

أنتظرها كلّ يوم أحد، وكلَّ يوم أحد تأتي إلى موعدها.

نقومُ بنزهةٍ مصطحبين طفلتها. وأحياناً، لأننا في فصل الشتاء، أرى لين مقبلة وهي تجرُّ زلاّقةً صغيرة وقد أجلست عليها الطفلة. أجرُّ الزلاّقة حتى أصل بها إلى أعلى المنحدر، ثم أرخيها فتنزلقُ حاملةً لين وڤيوليت، وألحق بهما سيراً حتى أسفل المنحدر.

هكذا لا يمرّ عليَّ يوم دون أن أرى لين. لقد اصبحت أمراً لا بدَّ منه.

Twitter: @ketab_n

صارت نهاراتي في الفبركة نهارات غبطة، وصار نهوضي المبكرٌ كلَّ صباح رَغَداً، وصار الباص في عينيّ رحلة حول العالم وساحة «برنسيبال» مركز الكون.

تجهلُ لين اني حاولت قتل والدها وتجهل أن والدي هو والدها. لذا استطيع أن أطلب يدها للزواج. هنا، لا أحد يعلم اننا أخوان؛ لين، نفسُها، لا تعلم، فليس هناك إذاً أية عقبة.

لن ننجبُ أولاداً، فلسنا في حاجة إلى الأولاد. لين لها ولدُها وأنا أكره الأولاد. ثمَّ انه بإمكان كولومان أن يصطحب الطفلة حين يعود إلى البلاد. وعلى هذا النحو ستحظى بجدين وبلاد وكلّ ما تحتاجه.

أما أنا، فكلُّ ما أريده هو أن أستبقي لين هنا، بقربي. في منزلي. وشقّتي نظيفة.

أخلي الحجرة الثانية التي كنتُ أريد أن أجعلها غرفة مكتب، وأضع فيها أثاث غرفةِ أطفال تحسُّباً لاحتمال أن تأتي لين فجأة للسكن في بيتي.

بعد أن ننهي طعامَ الغداء، نَعْمَدُ، لين وأنا، أحياناً إلى لعب الشطرنج. وأكون أنا الرابح دائماً. وفي الجولة الخامسة التي أربحها تقول لي لين:

ـ لا بدَّ أن تكون الأقوى في شيء ما.

ـ ماذا تقصدين؟

Twitter: @ketab_n

إنها غاضبة، وتقول:

ـ في المدرسة، كنّا في نفس الصفّ. ومنذ ذلك الحين اجتاز كلٌّ منا مسار حياته الخاص. أصبحتُ مدرّسة لغات أمّا أنتَ فارتضيت أن تبقى مجرّد عامل بسيط.

أقول:

ـ إني منصرف إلى التأليف. أكتبُ يوميّاتي وأؤلّف كتاباً.

ـ مسكين أنت يا ساندور، حتى إنك لا تعرف ماذا يكون الكتاب. بأي لغةٍ تكتب؟

ـ بلغة هذه البلاد. لن تتمكني من قراءة ما أكتب.

تقول:

ـ إنه لِمَنَ الصعوبة بمكان أن يكتب المرء بلغته الأمّ، فما بالك أن يكتب بلغةٍ أخرى؟

أقول:

ـ إني أحاول. هذا كلّ ما في الأمر. وسواء عندي أن تنجح المحاولة أو تخفق.

ـ أحقاً؟ أسيّان عندك أن تبقى عاملاً طيلة حياتك؟

ـ معك، لا، هناك فرق. أما بدونك، فبلى.

ـ إنّك تخيفني، يا طوبياس.

ـ وأنتِ أيضاً تخيفينني يا لين.

Twitter: @ketab_n

من حينٍ إلى آخر، ألتقي يولاند، مساءَ السبت. كنتُ أصبحتُ لا أطيق رؤية لين وزوجها نائمين على سرير واحد، والآن ضقتُ ذرعاً من ارتياد الحانة.

يولاند تطبخ مُرندحة، وتُحضر لي كأساً من الوسكي مع الثلج، فيما أستغرقُ في قراءة الصحيفة. بعد ذلك نجلسُ إلى المائدةِ متقابلين ونتناول طعامنا في صمت. ليس هناك ما يقوله واحدنا للآخر. بعد العشاء أضاجعها إن استطعتُ وما عاد الأمر دائماً بمستطاعي. ولا أفكر في الأثناء إلاّ في أن أسرع ما أمكن في العودة إلى بيتي لكي أنصرفَ إلى الكتابة.

ما عدتُ أكتب بلغةِ هذه البلاد قصصي الغريبة، بل أكتب قصائدَ شعرٍ بلغتي الأمّ. هذه القصائد مهداة إلى لين بالطبع غير اني لا أجروء على أن أطلِعها عليها. ما عدتُ واثقاً من كتابتي الصحيحة للكلمات وأتخيَّل لين وهي تضحك ساخرة مني. أما بالنسبة لمضمونها فمن المبكر جدّاً أن تعلم به. فمن شأنها لو علمت به أن تمنعني من الجلوس إلى مائدتها في المقصف وأن تلغي نزهاتنا يوم الأحد.

ذات يوم سبت من أيام كانون الأوّل، تقول لي يولاند:

ـ في عطلة عيد الميلاد، سأذهب لزيارة أهلي. بإمكانك أن تمضي سهرة رأس السنة معنا. فمنذ وقت طويل وهم يبدون رغبتهم في التعرُّف بك.

ـ مُحْتَمل. قد أفعل ذلك.

سوى أنّ لين أخبرتني صباحَ يوم الإثنين، أنّ زوجها اقترح أن

Twitter: @ketab_n

يدعواني لقضاء سهرة الميلاد بصحبتهما.

ـ تعالَ برفقة فتاتك.

أهزّ رأسي:

ـ لو كانت لي صديقة لما أمضيت بعد ظهر أيام السبت والأحد بصحبتك. سوف أصطحب صديقاً.

أقول ليولاند أنني مدعوّ بمعيةِ جان إلى سهرةٍ ينظّمها أهل بلدي. أجل، أذهبُ بصحبة جان، فقط رغبة مّني في أرى وَجْهَ عالم الفيزياء الكبير وهو يتناول الطعام إلى مائدة العيد بجانب صديقي الفلاّح الأمّي!

أخطأت.

يستقبلنا كولومان بالترحاب. يُحسِنُ وفادة جان وسرعان ما يرفع عنه أيَّ حَرَج حين يقترح عليه مطرحاً في المطبخ ويُقدِّم له كوباً من البيرة.

لطالما راقبتُ هذا المنزل من الخارج فأراني مبتهجاً لتمكُّني من التعرُّف إلى الشقة عن كثب. حجرة مُطلّة على الشارع، وحجرة مطلّة على الحديقة والغابة. يتوسَّط الحجرتين مطبخ. لم أرَ لاحجرة استحمام ولا تدفئة مركزية، فالتدفئة متوفِّرة للحجرتين بالفحم، أما المطبخ فبالحطب.

أقول في سرّي إنَّ لين ستشعر براحةٍ أكبر في منزلي.

إنها منهمكة بإعْدادِ المائدة في الحجرة الأمامية حيث اعتاد كولومان أن يعمل. فقد أفرغ الطاولة ممّا عليها ورتَّب كتبه.

Twitter: @ketab_n

شجرة الميلاد مزيّنة، وتحتها وُضِعَت بعض الهدايا. بجانب الشجرة، الصغيرة تلهو في مُراحها البيتي.

يُضيءُ كولومان الشموع وتتلقّى الصغيرة هداياها. سيّان عندها بالطبع: عمرها ستة أشهر. لقد أحضرتُ لها هِرّاً من قطيفة أما جان فأحضر بُلبُلاً خشباً صنعه بيديه.

تعطي لين الرضّاعة للطفل:

ـ سنأكل بعد أن تنام الصغيرة. بذلك تكون جلستنا أهدأ.

يفتح كولومان قنينة نبيذ أبيض، يسكب ويرفع كأسه:

ـ ميلاد مجيد للجميع!

أقول في سرّي إنني لم أحظَ يوماً بشجرةِ الميلاد. وربَّما كان جان يقولُ في سرّه كلاماً مماثلاً.

تضع لين الطفلة في السرير في الغرفة الخلفية، فنبدأُ بتناول الطعام. بطّ مطبوخ بالرز والخضار. إنه لذيذ جدّاً.

بعد الطعام نتبادل الهدايا. هدية جان عبارة عن سكين متعدِّدَه النصال ومن بينها بزالٌ ومفتاح علب. يبدو مسروراً. أما أنا فهديتي كناية عن قلم حبر سائل فأَحَارُ في فهمِ هذه البادرة من قبل لين. والأحرى أنني أحيلها إلى مجازها السيئ، وأعتبرها سخرية.

يستدير كولومان بجلسته نَحوي:

ـ أخبرتني كارول أنّك تكتب.

أنظرُ إلى لين، أشعر بدفءٍ كالنيران تستعرُ في وجهي، ولا بدَّ أن الدماء اجتمعت في وجنتي. أقولُ ببلاهة:

ـ أجل، ولكن اكتب فقط بقلمِ رصاص.

Twitter: @ketab_n

ولكي ابدّل موضوع المحادثة، أسارع إلى تقديم الهدّية التي أحضرناها سوّياً إلى لين، وهو عبارة عن طقم للمشروبات الروحية المحلاّة، يشتمل على زقّ زجاجي وكؤوس. بالطبع أنا الذي دفع ثمنه.

تبدأ لين بتنظيف المائدة. أساعدها. ثمَّ نعمد إلى تسخين الماء وتقدم لين بغسلِ الأطباق، أما أنا فأنشّفها. خلال انهماكنا بغسل الأواني وتنشيفها تتناهى إلى مسامعنا أصداء ضحكات مصدرها الغرفة. ذلك أن كولومان وجان يتبادلان سَرْدَ الدعابات.

أدخل الغرفة:

ـ جان، حانَ وقتُ الرحيل. فبعد عشر دقائق يمرّ الباص الأخير.

أمام كولومان أقبّل لين على خدِّها:

ـ شكراً لك يا ابنة العمّ على هذه السهرة الرائعة.

جان يُقبّل يد لين:

ـ شكراً، شكراً، عِم مساءً يا كولومان.

يقول كولومان:

ـ إلى موعدٍ قريب. لقد استمتعتُ كثيراً.

بين الميلاد ورأس السنة يتوقف العمل لأسبوع كامل في الفبركة. لذا لا باصَ يقلّنا سوياً ولا وجبات طعام سوياً. قبل العيدين كنتُ قد حذّرتُ لين:

Twitter: @ketab_n

ـ سأكون هنا، فوق الجسر، كلّ يوم، عند الثالثة تماماً.

حين يكونُ الطقسُ مقبولاً أقصد الجسرَ على درّاجتي الهوائية. وحين يهطل الثلج أستقلّ الباص. أنتظر بضع ساعات فوق الجسر ثمّ أعود وأكتب قصائدي.

لسوء طالعي لا بدَّ أن كولومان في إجازة أيضاً، ذلك أنه يرافق لين في نزهاتها مع الطفلة. لذا أختبىء خلف شجرة، وعندما يغيبان عن ناظري أغادر. لا بدَّ أن لين تعرف درّاجتي جيداً.

لم تأتِ لين ولو مرّة واحدة طيلة أيام هذه الإجازة. لم أستطع أن أكلّمها ولو مرّة واحدة.

أيُعقل أن يكون كولومان قد ارتاب بأمرٍ ما خلال أمسية عيد الميلاد؟

صرتُ الآن أفضّل أيام العمل على أيام العطلة. أشعر بضجر فظيع. أطرق باب يولاند ولكنْ لا أحد يجيب؛ ما زالت عند أهلها. يتهم ليس بعيداً جداً غير أني لا أعرف العنوان.

حانة اللاجئين مقفلة.

ذات مساء، أطرق باب بول. كاتي هي التي تفتح الباب لي.

ـ مساء الخير يا ساندور، ماذا تريد؟

ـ لا شيءَ محدَّداً. أن اتحدَّث قليلاً إلى بول وإليك.

Twitter: @ketab_n

ـ بول ليس هنا، لقد رحل. اختفى. ربّما عاد إلى البلاد، لا أدري. بعد وفاة ڤيرا ببضعة أشهر، عثرتُ على رسالة فوق طاولة المطبخ. يخبرني فيها أنّه أحب ڤيرا، أنّه كان مُغْرَماً بڤيرا وأنه سيندم طيلة حياته لأنه رافقني لتمضية الإجازة. ويخبرني فيها أنَّ ڤيرا كانت تحبّه أيضاً، وهذا هو السبب الذي دفعها إلى الانتحار حين غادرنا سوياً لتمضية الإجازة وتركناها وحيدة.

لا أملك إلاّ أن أُتمتم قائلاً:

ـ إني أسف. كيف تتدبرين أمورك في غياب بول؟

ـ على أحسن ما يرام ما زلتُ أعمل في المستشفى وأساكنُ رجلاً من هنا لا خوف عليه من أن يقع في غرام أختي الصغرى لأنها الآن ميتة.

تصفق كاتي الباب. أمكث في مكاني، عند العتبة لبعض الوقت. في ذلك الوقتُ كنتُ أعتقد أن ڤيرا تحبّني أنا. كنتُ على خطأ. لقد أغرمت بصهرها، بول، زوج أختها. ومن ناحية ثانية أشعر بالارتياح: لم تكن ڤيرا، إذاً، تنتظر أيَّ شيءٍ مني.

في الحادي والثلاثين من شهر كانون الأوّل، أقصد مركز اللاجئين. أحملُ معي بضعة كيلو غرامات من الأطعمة. أدخلُ صالة فسيحة. أرى فيها أناساً من كافة الألوان منهمكين بتزيين الصالة وإعداد المائدة. مناديل ورق، أكواب وأطباق من البلاستيك. وفي الأرجاء، كيفما التفتّ، أغصان شجر الصنوبر.

Twitter: @ketab_n

حالما أدخلُ يسود هرج، وتعلو صيحة:

ـ جان! يا جان! إنّه صديقك!

يقودني جان إلى كرسيّ المحتفى به بقرب المطبخ.

ـ فرحتنا لا توصف لأنّك أتيت يا ساندور.

ويبدأ حفل صاخب يُقيمه أناسٌ جاؤوا من بلدان أعرفها وأخرى أجهلها. موسيقى، رقص، غناء. فقد سُمح للاجئين أن يحتفلوا حتى الخامسة صباحاً.

عند الحادية عشرة ألوذُ بالفرار أركب درّاجتي وأهرع في اتجاه البلدة الأولى. أُجلس عند طرف الغابة. كلّ النوافذ في بيت لين مُعتمة.

لا تلبث ساعة برج الكنيسة أن تدقّ إثنتي عشرة مرّة إيذاناً بحلولِ منتصف الليل. سنة جديدة تبدأ. أما أنا فها أنذا أقتعدُ العشبَ الذي أيبسه الجليد، أحني رأسي فوق ذراعيّ وأبكي.

أخيراً انتهت الإجازة. ومجدّداً نلتقي أنا ولين، كلّ يوم تقريباً. حتّى أثناء العمل، ليس هناك سوى طبقة واحدة تفصل بيننا وبإمكاني أن أذهب لأراها ساعة أشاء.

في صباحِ أوّل يوم عمل بعد الإجازة، تقول لين في الباص:

ـ أعذرني يا ساندور، لم أتمكن من مغادرة المنزل وحدي. كان كولومان يعمل طيلة النهار وما أن أبدأ بالأستعداد للنزهة برفقة

Twitter: @ketab_n

ڤيوليت، كان يقول كم أنه يحتاج، هو أيضاً، لتنشّق بعض الهواء الطلق.

ـ أجل يا لين، لقد رأيتكم. لا بأس. لحسن الحظ أن الإجازة انتهت الآن. وعادت الأمور إلى مجاريها.

تقول لي لين كلاماً رائعاً:

ـ اشتقتُ إليك. كنت أضجر كثيراً في البيت. فبالكاد كان كولومان يوجّه إلي الكلام. لقد دفنَ نفسه بين كتبه. حتى أثناء نزهاتنا كان يلزم الصمت طيلة الوقت تقريباً. فكنتَ أنتَ من يستغرق فكري. وكنتُ أشعرُ بالحزن حين ألمح درّاجتك. وأنتَ ماذا فعلت خلال أيام العطلة؟

ـ انتظرتك.

تُغضي لين وتحمرّ وجنتاها.

خلال الغداء تقول لي:

ـ لم أسألك من قبل أين تركت والدتك. لقد رحلتما، أليس كذلك؟

ـ لا، رحلتُ قبلها. ولا أدري ما حلَّ بها.

ـ لقد شوهدت في المدينة، في الشارع. اعذرني يا طوبياس، ولكنْ اعتقد أنّ أمّك واصلت نمط الحياة الذي كانت تحياه في البلدة.

ـ لم يكن لديها خيار آخر. غير أنَّ هذا جزءٌ من حياتي أفضّل أن أنساه يا لين. فهنا لا أحد يعلم من أين جئت وماذا فعلت.

Twitter: @ketab_n

ـ مسكين طوبياس. اغفر لي. حتى أنك لا تعلم من هو والدك.

ـ أنتِ مخطئة يا لين، أعرفه جيّداً. لكنّه سرّ.

ـ حتى بالنسبة لي؟

ـ أجل، حتى بالنسبة لك. خصوصاً بالنسبة لك.

ـ ربّما كان ذلك لأنني أعرفه؟

ـ أجل لأنّك ربّما كنتِ تعرفينه.

تهزّ لين كتفيها:

ـ أنت تعلم أنني لا أبالي إنْ كان والدك أحد أولئك الفلاّحين. حتى أني لا أذكر أسماءهم.

ـ وأنا أيضاً يا لين، ما عدتُ أذكر أسماءهم.

أصبح بإمكاننا، أنا ولين، أن نتحدّث عن الماضي خلال نزهاتنا أو في أوقات الغداء. تروي لي لين:

ـ تلك السنة حين غادرت، أنهينا المدرسة الإلزامية. وعند حلول الخريف، ذهبتُ إلى المدينة لأقيم في منزل إحدى خالاتي. وكان أخي البكر قد سبقني إليها حيث التحق بمدرسة داخلية مجّانية. كنا نلتقي كلّ يوم أحد عند خالتي. كانوا يُحضرون المواد الغذائية من البلدة لأنَّ المدينة كانت تُعاني من أزمةٍ في كلِّ شيء بعد انتهاء الحرب. بعد سنتين جاء أخي الأصغر والتحق بدوره بالمدرسة الداخلية المجانية، وهي المدرسة نفسها التي كان والدي يريد إلحاقك بها، أنت أيضاً. فيما بعد، انتقلنا، نحن الثلاثة، إلى

Twitter: @ketab_n

العاصمة لمتابعة دراستنا الجامعية. أخي الأكبر أصبح محامياً والآخر أصبح طبيباً. كان بإمكانك أنت أيضاً، أن تصبح شخصية مرموقة لو أصغيت لكلام أبي. لكنَّك فضلت أن تهرب وأن تصبح نكرة. عامل مصنع. لمَ فعلت ذلك؟

أجيب:

ـ لأن واحدنا لا يصبح كاتباً إلاّ إذا أصبح نكرة. ثمّ أن مجرى الأمور تمَّ على هذا النحو وليس على نحوٍ آخر.

ـ هل أنت جادٌّ في ما تقول يا ساندور؟ أيجب أن تكون نكرة لتكون كاتباً؟

ـ بلى، أعتقد.

ـ أمَّا أنا فأعتقد أن من يصبح كاتباً يجب أن يمتلك ثقافة واسعة جداً. كما يجب أن يكون قد قرأ الكثير من الكتب. لا يُصبح المرء كاتباً بين ليلة وضحاها.

أقول:

ـ لا أملك ثقافة واسعة جدّاً، ولكني قرأت كثيراً. كتبتُ كثيراً. لكي يصبح المرء كاتباً، ليس عليه إلاّ أن يكتب. بالطبع يحدث أن لا يكون لديه ما يقوله. وأحياناً، حتى لو كان لديه ما يقوله، فقد لا يتمكَّن من قوله.

ـ وفي آخر الأمر ماذا تبقَّى ممّا كتبته؟

ـ في آخر الأمر، لا شيء، أو تقريباً لا شيء. ورقة أو اثنتان، عليها نصٌ مذيَّلٌ باسمي. في ما ندر، لأنني، في العادة، أحرق كلَّ ما أكتبه تقريباً. ما زلتُ لا أجيد الكتابة على نحو مقبول. فيما بعد،

Twitter: @ketab_n

سأؤلف كتاباً لن أحرقه وسأوقعه باسم طوبياس هورفات. سيظن الجميع أنه اسم مستعار. والحقيقة إنه اسمي غير أنَّك الوحيدة التي تعلم به يا لين، أليس كذلك؟

تقول:

ـ أنا أيضاً أودُ أن أكتب. حين أعود إلى البلاد وتدخل ڤيوليت المدرسة، سأنصرف إلى الكتابة.

ـ وماذا ستكتبين؟

ـ لا أدري. ربّما قصة حبّ كبير مستحيل.

ـ ولمَ يكون هذا الحبّ مستحيلاً؟

تضحك لين:

ـ لا أدري. لم أبدأ بالكتابة بعد.

ـ كتابك سيكون مزيّفاً.

ـ ليس بإمكانك أن تعلم.

ـ بلى. لأنَّك لا تعرفين كلَّ شيء. ولن تتمكني يوماً من كتابة قصّتنا.

ـ أهذا يعني أنَّ لدينا قصّة؟

ـ أجل يا لين لدينا قصّة.

ـ أهي قصّة حب؟

ـ هذا مرهون بك يا لين. إلاّ إذا كانت لديك قصّة حبٍّ مستحيل مغايرة.

Twitter: @ketab_n

تقول مبتسمةً:

ـ لا، ليس لدي مثل هذه القصّة. ولكنْ بإمكاني أن اخترع واحدة.

ـ ليس هناك ما ينبغي اختراعه. إني أحبك يا لين، وأنتِ أيضاً كنتِ تحبينني.

نتوقف. ڤيوليت نائمة في عربتها. إنها بدايات الربيع. الثلج يذوب، ونحن نسيرُ مخوَّضين في الوحل.

تستغرق لين في تأملِ صغيرتها النائمة:

ـ بلى، أنا أيضاً أحبّك يا ساندور، ولكن هناك زوجي. وهذه الصغيرة.

ـ ومن دونها، أكنتِ احببتني كلَّ الحبّ؟ أكنتِ قبلتِ الزواج منّي؟

ـ لا يا طوبياس. لا استطيع أن أصبح زوجة عامل مصنع ولا أن أواصل العمل في فبركة.

أسأل:

ـ وعندما أصبح كاتباً كبيراً معروفاً، وأعودُ إليك، أتقبلين الزواج مني؟

تقول:

ـ لا يا طوبياس. أوّلاً اني لا أؤمن بأحلامك في أن تصبح كاتباً معروفاً، هذا من جهة، أما من جهة أخرى فلن أستطيع يوماً أن أتزوّج إبن استير. إن والدتك بقيت في القرية لأنّ جماعة من

Twitter: @ketab_n

البوهيميين، من الغجر، خلّفتها وراءها. وراءها هناك. جماعة من اللصوص والمتسولين. أما أنا فوالداي مستقيمان، ومن نسبٍ طيّب.

ـ أجل، أعلم. أما أنا فأمّي بغيّ وأبي مجهول الهوية ولستُ سوى عامل. حتّى لو أصبحت كاتباً، فسأبقى، رجلاً بلا نَفْعٍ، بلا ثقافة، بلا تربية، إبن عاهرة.

ـ أجل، هذا صحيح. أُحبّك لكنه ليسَ سوى حلم. أشعر بالخجل يا ساندور. أشعر بتأنيب الضمير مع زوجي وأشعر بتأنيب الضمير معك. ولدي انطباع بأني أخونكما معاً.

ـ ولكنْ هذا ما تفعلينه بالضبط، يا لين. أنت تخونيننا معاً.

أقول في سرّي إنه ينبغي أن أخبرها بكل شيء لكي أجعلها تتألّم كما تجعلني. أتألّم، أن أخبرها بأن والدي هو والدها المثقف ذو النسب الطيّب. يجب أن أخبرها ولكني لا أستطيع، لا أستطيع أن أؤذيها، ولا أريد أن أفقدها.

يُضطرّ زوج لين إلى التغيّب ليومين للمشاركة في أحد المؤتمرات.

أقترح على لين قائلاً:

ـ بإمكاننا أن نلتقي مساءً.

تبدي بعض التردُّد:

ـ لا أريد أن تأتي ألى المنزل. ولا استطيع أن آتي إلى بيتك،

Twitter: @ketab_n

إنه بعيد جداً، ولا يجب أن أترك الصغيرة بمفردها لوقتٍ طويل. انتظرني عند الجسر. وحين تنام ڤيوليت سألقاكَ لبعض الوقت. نحو التاسعة مساءً.

أَصلُ عند الثامنة، أسند دراجتي إلى درابزين الجسر. أجلس، وانتظر، كما اعتدتُ أن أفعل في امسيات لا تُحصى. بإمكاني أن أنتظر لساعات، لأيام إن دَعَت الحاجة، فهذا شاغلي ولا شيءَ آخر سواه.

مستعيناً بالمنظار أراقبُ لين. تدخل الغرفة الخلفية تضع ابنتها في السرير وتطفىء النور. تفتح مصراع النافذة وتنحني فوق حافتها تدخّنُ سيكارة. إنها لا تراني سوى انها تعلم انني هنا. تنتظر ريثما تستغرق ابنتها في النوم.

تدقُّ ساعة الكنيسة مؤذنةً بأنها التاسعة مساءً. إنها تُمطر.

بعد ذلك بقليل. أرى لين على مقربةٍ مني. لقد قَمَطَت شعرها بمنديل يشبه ما ترتديه النسوةُ في بلادنا، ما عدا أمي التي كانت لا ترتدي لا المنديل ولا القبّعة؛ كان شعرها رائعاً، حتّى تحت المطر.

ترتمي لين في أحضاني، أقبلُ خدّها، وجبينها وعينيها وعنقها وفمها. قبلاتي مبلّلة بالمطر والدموع. أعرف الدموع التي سالت على وجه لين لأنها أشدّ ملوحةً أكثر من قطرات المطر.

ـ لِمَ تبكين؟

ـ لقد كنتُ لئيمة معك يا ساندور. قلت لك اني لن أتزوجك بسبب أمّك. ولكنها ليست غلطتك! ما ذنبك أنت. كان من حقك أن تغضب وأن تكفَّ عن رؤيتي إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

ـ لقد خطر ببالي مثل هذا القرار يا لين، ولكني لم أقوَ على ذلك. إني متيّمٌ بك. ولو اتخذت قراراً بأن لا أراك بعد اليوم أموت. لا استطيع أن أغضب منك، حتّى لو جعلتني أتألّم. أعلمُ أنّك تشعرين بالازدراء نحوي ولكني أحبُّك ما يكفي لاحتمال ذلك. فالأمر الوحيد الذي لا أقوى على احتماله هو أن تعودي إلى البلاد برفقة كولومان.

ـ ولكنْ هذا ما سأفعله في غضون أشهر قليلة.

ـ لن أحيا بعد رحيلك يا لين.

تداعب شعري:

ـ بالطبع ستحيا يا ساندور. ثمَّ ليس عليك سوى أن تعود أنتَ أيضاً إلى البلاد، وهناك سنتمكن من أن نلتقي مجدّداً.

ـ في الخفاء؟ دون أن يعلم زوجك؟

ـ ما من حلٍّ آخر. إذا كنت تحبّني حقاً، هيا عُد معنا إلى البلاد، ابقَ بجانبي. لا شيء يحول دون أن تفعل.

ـ أوه! بلى. أمور كثيرة.

أضمّها إلى صدري وأقبّلُ شفتيها طويلاً، طويلاً جداً، فيما البروق تنيرُ من حولنا، والرّعد يقصف، ودفء غامرٌ يكتنفُ جسدي، فأنتشي وأقفُ مُلتصقاً بلين.

Twitter: @ketab_n

المَطَر

أمسِ، استغرقتُ في النوم. حلمتُ أنني ميت. وكنتُ أرى قبري. كان قبراً مهجوراً، مكسوّاً بالأعشاب البرّية.

إمرأة عجوز كانت تتنزّه بين القبور. سألتها لِمَ لا أحد يعتني بقبري.

ـ إنّه قبر قديم جداً، قالت. أنظر إلى التاريخ. ما عاد أحدٌ يستطيع أن يعرفَ مَن المدفون هنا.

نظرتُ. كان التاريخ المحفور تاريخ السنة الجارية. لم أجِدْ جواباً.

عندما استيقظت كان الليلُ قد حلَّ منذ بعض الوقت. ومن سريري أستطيع أن أرى السماء والنجوم. كان الهواءُ شفيفاً ناعماً.

كنتُ أسير. لم يكن هناك سوى السَّير والمطر والوحل. شعري مبلَّل وثيابي مبلَّلة، لا أملك حذاءً، أسيرُ حافي القدمين. كانت قدمايَ بيضاوين، يتنافر بياضهما مع لون الوحل. الغيوم رماديّة. والشمس لم تشرق بعد. كان بردٌ. المطرُ بارد. الوحل باردٌ أيضاً.

Twitter: @ketab_n

كنتُ أسير. أصادفُ مارّةً آخرين. كانوا يسيرون جميعاً في الاتجاه نفسه، وكانت خطواتهم خفيفة حتّى يحسب من يراهم أنّهم بلا وزن. أقدامهم التي بلا جذور لا يجرّحها السيرُ أبداً. كانت تلك طريق الذين غادروا منازلهم، الذين هجروا بلادهم. ولم تكن تلك الطريق لتؤدي إلى أيّ مكان. طريق مستقيمة لا تنتهي. تخترق الجبال والمدن، الحدائق والأبراج، دون أن تخلّفَ أثراً وراءها. عندما يلتفتُ السائر عليها إلى الوراء تتلاشى إذ ما من طريق إلاّ الطريق التي تمتدُّ إلى الأمام. وإلى جانبيها تترامى حقولٌ موحلة شاسعة.

يتقطّع الزمن. أين نعثر على وعرِ الطفولة؟ على الشموس المُضْمَرة المخبوءة في الفضاء المعتم؟ أين نعثر على الدرب الذي مال إلى العَدَم؟ فقدت الفصولُ معناها. غداً، أمس، ماذا تعني هاتان الكلمتان؟ ليس هناك سوى الحاضر. مرّة يهطل الثلج ومرّة أخرى ينهمر المطر. ثمّ تشرقُ الشمس، ثمّ تهب رياح. كلُّ هذا يحصل الآن. لم يكن من قبل، ولن يكون فيما بعد. إنه يحصل الآن دائماً. في وقتٍ معاً. ذلك أن الأشياء تحيا فيَّ وليس في الزمن. وفيَّ أنا، كلُّ شيء حاضر.

Twitter: @ketab_n

أمسِ، ذهبتُ إلى ضفة البحيرة. المياه الآن دكناء، معتمة جداً. كلّ مساءٍ تبحر في خضمّ الأمواج بضعة نهارات منسيّة. تبتعد في اتجاه الأفق كما لو أنها سفنٌ في البحر. غير أنّ البحر بعيد من هنا. كلُّ شيء بعيدٌ بعيد.

أعتقد انني سأتعافى قريباً. شيء ما سينكسر في داخلي أو مكان ما من الفضاء. سأرحل صوب مرتفعات مجهولة. فما من شيءٍ على الأرض سوى الحصاد، والانتظار القاتل والصمت المبهم.

Twitter: @ketab_n

أعودُ إلى البيت على درّاجتي تحت المطر. أشعر بالسعادة. أعلم الآن أن لين تحبّني. لقد طلبت مني أن أعود إلى البلاد حالما تعود هي برفقة كولومان.

غير أني لا أرغب في ذلك.

أن أعود إلى بلادي؛ لِمَ؟

لكي أصبح عامل مصنع مرّة ثانية؟ لن تكون لين في المصنع ولا في المقصف.

ستصبح أستاذة جامعية.

ولن تتعرّف إليّ.

يجب أن تبقى هنا. يجب أن تبقى. ولا أبالي إذا بقيت برفقة زوجها وطفلتها. لا أريد أن ترحل. أعلم انها تحبّني. لذا يجب أن تبقى.

ستبقى لين معي، هنا. متزوجة أم لا مع طفلتها أم لا، لا فرق. سنعيش سوياً.

سنعمل في الفبركة لبعض الوقت، ثمَّ سأنشر كتباً وقصائدَ

Twitter: @ketab_n

وروايات، وقصصاً، فنصبحُ أثرياء. ولن يكون علينا بعد ذلك أن نعمل، سنشتري منزلاً ريفياً. ونستخدم امرأةً في متوسِّط العمر، رقيقة ولطيفة، لكي تُعِدّ لنا الطعام وتدبّر شؤون المنزل. أما نحن فننصرف إلى تأليف الكتب والرسم.

هكذا ستمضي علينا الأيام.

لن نحتاج إلى الركض أو إلى انتظار أي شيءٍ، مهما كان. سنستيقظ بعد أن ننام ملء جفوننا. وننام متى نشاء.

سوى ان لين لم توافق.

إنها مصممّة على العودة إلى بلادنا. لا أدري لماذا. فثمة بلدان أخرى كثيرة في هذا العالم!

وإذا عدتُ، أنا أيضاً، إلى البلاد، لن أستطيع أن أمنع نفسي عن البحث عن أمي بين عاهرات المدن كافة.

إثر لقائنا مساء أمسِ، كنتُ خائفاً ممّا قد تقوله لين. فمن الصعوبة بمكان أن يتوقّع المرء ردّ فعلها ما يجعلني حائراً في أمري.

صبيحة اليوم التالي، تصعد إلى الباص وتجلس كالعادةِ، بجانبي. بذراعها اليمنى تحضنُ ابنتها الصغرة، فتدسُّ يدها اليمنى في يدي. لا أطرح عليها أيَّ سؤال. نمكث على هذا النحوِ حتى وصولنا إلى الفبركة.

الطقس جميل. عند الظهر، نأكل، ثمَّ نذهب للتنزُّه في

Twitter: @ketab_n

الحديقة العامة. نجلس على مقعد. لا أحد في جوارنا، نلزم الصمت. قبالتنا ينتصبُ مبنى الفبركة الضحم. أبعد منه، يُطالعنا منظر رائع لا نرى مثيلاً له إلاّ في النشرات السياحية.

أضع كفّي على يد لين. لا تسحبها. وبصوتٍ خفيض أتلو على مسمعها إحدى قصائدي المهداة إليها، بلغتنا الأم.

ـ لمن هذه القصيدة؟

ـ لي.

ـ أعتقد أنّك ربّما كنت موهوباً بالفعل، يا ساندور.

يجب أن نعود لاستئنافِ عملنا. تفترقُ يدانا. وأقولُ في سرّي إنني لن أقوى على العيش دون أن أمسكَ بيد لين.

كيف أستبقيها؟

ذات مساء، أعثر في علبة بريدي على رسالة من ايڤ:

لقد اهتدينا إلى مترجم آخر يجيد لغة بلادك. لذا لم نعد في حاجة ماسّة إليك. ومع ذلكَ أودّ أن أراك لبضع دقائق في منزلي، أنت تعرف العنوان. عيناك الخضراوان سَحَرتاني... والباقي أيضاً. انتظرك بدءاً من الساعة الثامنة يومي الأربعاء والسبت مساءً. مع ذكراك التي لا أنساها. إيڤ.

لا أبعث بالردّ على رسالتها. فبأية حال، لن أتمكن من مضاجعتها الآن. لا هي ولا يولاند، لا أستطيع. ما عدتُ أستطيع.

ـ أنتَ لا تأكل جيّداً يا ساندور. ألا يُعجبكَ طبخي؟

ـ طبخك ممتاز، يا يولاند.

Twitter: @ketab_n

ـ ما الأمر؟ تبدو كالهرّ المتضوِّر جوعاً لقد أورثك مواطنوكَ المرض.

ـ دَعْكِ من هذا يا يولاند.

أنام على الكنبةِ مُستمعاً إلى الموسيقى. نحو منتصف الليل توقظني يولاند:

ـ سأصطحبك إلى منزلك. أم أنَّك ترغب في أن تنام هنا.

ـ شكراً يا يولاند، اعتقد أنني سأذهب للنومِ في بيتي. ولكن لا تزعجي نفسك، سأذهب سيراً على الأقدام.

أعود إلى بيتي. أُفاجأ بجان نائماً فوق أرضية المطبخ. أحسب انه ثمل، فأهزّه بعنف. يفتح عينيه:

ـ ألستُ ميتاً؟

ـ ولمَ تكون ميتاً؟

ـ مع انني فتحت صنبور الغاز.

ـ الغاز مقطوع منذ أسبوع. لم أعد أسدِّد الاشتراك. والكهرباء أيضاً سوف يقطعونها قريباً. لقد انفقت مالاً كثيراً على البياضات والدراجة ومصباح الجيب والمنظار... كيف دخلت؟

ـ كان الباب مفتوحاً.

ـ لا بدّ أنني نسيت أن أغلقه. ولكنهُ أمر غير مهمّ. ليس هناك ما يُسرق. لم كنت تودّ أن تموت؟

ـ لقد تلقّيتُ رسالة. رسالة من مجهول يخبرني فيها أنه يجب ألاّ أعود إلى البلاد أبداً لأنَّ زوجتي تعاشر رجلاً آخر، أمّا أنا فلا

Twitter: @ketab_n

أصلح لشيء إلاّ لإرسال النقود. زوجتي حامل من الرجل الآخر. ماذا أفعل؟

ـ إمّا أن تعود وتسترجع زوجتك، وإمّا أن تمكث هنا وتنسى الأمر برمّته.

ـ ولكني أحبّ زوجتي! أحبّ أولادي!

ـ إذاً، ثابر على إرسال النقود.

ـ هل أفعل وأنا أعلم أن الرجل الآخر هو المستفيد من النقود؟ ماذا كنت تفعل لو كنتَ محلّي؟

ـ لا أدري. حتى أني لا أدري ماذا أفعل لو كنتُ في محلّ نفسي.

ـ والحالُ، أنّك شخص ذكي. مَنْ أقصد سواك طلباً للنصُحِ؟

ـ أقصد كاهناً، على سبيل المثال.

ـ لقد سبق أن حاولت. إنّهم لا يعرفون الحياة. ينصحوننا بتقبُّل الأمر الواقع والصلاة والثقة بالحكمة الإلهية. ألديكَ ما يؤكَل؟

ـ لا، لا شيء. لقد تعشّيت عند يولاند. هيا، لنخرج.

نقصد حانتنا المعتادة. إنها شبه خالية. أنفق نقودي القليلة المتبقية لي على طبقٍ من سَلَطة البطاطا أقدّمه لجان.

بعد أن ينهي طعامه يسأل:

ـ أيجب أن أعود إلى المركز؟

ـ بالطبع. أين ستجد مكاناً يؤويك؟

Twitter: @ketab_n

ـ في بيتك. في غرفة المهملات الصغيرة.

ـ لم يعد فيها مهملات. لقد جعلتُ منها غرفةً للأولاد، لكي أتمكن من استضافة لين.

ـ هل ستنتقل لين للإقامة معك؟

ـ أجل، قريباً.

ـ أنت واثق مما تقول؟

ـ أجل، لكنه ليس شأنك. بإمكانك أن تنام في الغرفة الصغيرة، على الأرضية فوق السجّادة. هذه الليلة فقط، ولا ليلة سواها.

يصل الباص إلى البلدة الأولى. على جاري عادتها، تحمل المرأة العجوز رزمة الصحف. تصعد لين. تجلس بجانبي. وتمسكُ بيدي كما اعتادت أن تفعل منذ أسابيع، وللمرّة الأولى تميلُ نحوي وتضع رأسها على كتفي. نتابع الرحلة على هذا النحو، دون كلام، حتى الفبركة. حين وصلنا، مكثت لين بلا حراك. أقول في سرّي ربّما كانت نائمة، فأهزها برفق. تقع عن المقعد. أحضن الطفل بين ذراعي وأصرخ.

ـ استدعوا سيّارة أسعاف!

تُنقل لين إلى مكتب المرشدة الاجتماعية العاملة في الفبركة، ثمّ يتمّ الاتصال بالمستشفى. إمرأة من الحضانة ستُعنى بالطفلة.

Twitter: @ketab_n

أرافق لين في سيّارة الإسعاف. فيسألني أحدهم:

ـ هل أنت زوجها؟

ـ أجل.

أمسك بيدي لين بين يدي، أحاول تدفئتهما. في الأثناء تستعيد لين وعيها.

ـ ماذا جرى يا ساندور.

ـ لا شيء خطيراً يا لين. لقد وقعتِ.

ـ وڤيوليت؟

ـ هناك من يعتني بها. لا تشغلي بالك.

تسأل أيضاً:

ـ ولكن ماذا أصابني؟ لا أشعر بأي ألم، أشعر بأني على أحسن حال.

ـ الأمر ليس خطيراً، بالتأكيد. مجرَّد توعُّك بسيط.

نصل إلى المستشفى. يقول لي أحدهم:

ـ عُد إلى بيتك. سنتصل بك هاتفياً.

ـ لا أملك هاتفاً. سأنتظر هنا.

يسير إلى باب:

ـ إذهب وانتظر في تلك الحجرة.

إنها ردهة انتظار ضيقة. يجلس فيها شاب. يبدو عصبيّ المزاج:

Twitter: @ketab_n

ـ لا أريد أن أرى هذا. إنهم يرغمونني على حضور عملية الولادة لكي أرى كم تعاني زوجتي. ولكني لا أريد، لاني إن شاهدتُ كلّ هذا فلن أتمكّن من مضاجعتها بعد الآن.

ـ أنت محقّ في ما تقول، فلا تذهب.

بعد قليل يتمّ استدعاؤه:

ـ تعالَ، لقد بدأت.

ـ لا!

يلوذ بالفرار. أراه، من خلال النافذة، وهو يجتاز الحديقة عَدْواً.

أنتظر قرابة الساعتين، ثمَّ يدنو مني طبيب شاب، ويقول مبتسماً:

ـ عُد إلى بيتك مطمئناً. إنَّ زوجتك ليست متوعّكة، إنّها حامل، هذا كلّ ما في الأمر. الأرجح أنها ستتمكن من مغادرة المستشفى يوم غد. تعالَ لاصطحابها نحو الثانية من بعد الظهر.

أمسِ، بعد مغادرتي المستشفى، لم أقصد الفبركة لاستئناف عملي. تسكّعتُ في شوارع المدينة ثمَّ، نحو الحادية عشرة، جلستُ في إحدى الحدائق قبالة الجامعة.

عند الظهر، خرج كولومان من المبنى وبصحبته فتاة شقراء. سارا في الحديقة فتبعتهما. جلسا إلى طاولة على رصيف مقهى.

Twitter: @ketab_n

كان الطقسُ قد أصبح حارّاً، فقد حلّ الربيع. طلبا طعاماً، كانا يتضاحكان.

لمجرّد رؤيتي كولومان بصحبة فتاة شعرتُ بالغيرة. فلا يحق له أن يخون لين خلال انهماكها بالعمل. ولا يحق له أن يُعيد لين إلى البلاد إذا كان قادراً على اللهوِ مع فتيات أخريات.

كنتُ أفكّر أيضاً بلين وهي تمسك يدي بيدها كلّ صباح. أمسِ مساءً، مارَسَت الحبَّ مع زوجها وإلاّ لما حملت منه.

أنهض، واتوجه نحو طاولة كولومان:

ـ ألديك دقيقة من الوقت؟

ينهض منزعجاً:

ـ ماذا تريد يا ساندور؟

ـ لين نقِلت إلى المستشفى. لقد أغمي عليها وهي في الباص هذا الصباح.

ـ أغميَ عليها؟

ـ أجل. لقد رافقتها إلى المستشفى. وهم في انتظارك هناك.

ـ والطفلة؟

ـ ستعتني بها إمرأة من الحضانة إلى حين رجوع زوجتك.

ـ شكراً يا ساندور. سأمرّ بالمستشفى فيما بعد، بعد أن أنهي محاضراتي.

ليس مُستعجلاً. يُنهي طعامه بهدوء ثمّ يعود إلى الجامعة برفقة الفتاة.

Twitter: @ketab_n

أعود إلى المستشفى. وأهرع إلى سرير لين:

ـ سيأتي زوجك ليراكِ حالما ينهي محاضراته.

ـ لقد كفَفْت عن رفع الكلفة بيننا يا ساندور.

ـ إني أشعر بالبرد، ببردٍ فظيع. إني أفقدك. تنتظرين مولوداً آخر من كولومان.

في اليوم التالي، يجب أن استقلّ الباص مجدَّداً، أن أستأنف العمل.

عند المساء أمرّ ببيت لين لأطمئنّ إلى أنها غادرت المستشفى. لا أرى في البيت غرفة واحدة مضاءة.

تمضي ثلاثة أيام ولين ما زالت غائبة. لا أجرؤ على الذهاب إلى المستشفى، لا أجرؤ على زيارة لين. لستُ زوجها، لستُ سوى غريب بالنسبة إليها. لا صلة تربطني بها، سوى اني أحبُها. سوى اني أخوها ولكنّ هذا لا يعرفه أحدٌ سواي.

في اليوم الرابع، أتّصل بالمستشفى هاتفياً. يقولون لي إن لين ما زالت هناك، وإنها لن تغادر قبل يوم الأحد التالي.

بعد ظهر يوم السبت أشتري باقة ورود عازماً على وضعها

Twitter: @ketab_n

باسم لين عند موظّف الاستقبال، ثمّ أفكّر في زوجها، كولومان، فأسارع إلى تقديمها لأوّل امرأة مجهولة أصادفها في الشارع.

يوم الأحد، أمضي سحابة نهاري قبالة المستشفى مختبئاً خلف أشجار الحديقة. عند الرابعة تقريباً، تتوقف سيّارة المرشدة الاجتماعية الصغيرة أمام المدخل. ثمّ لا تلبث لين أن تغادر المستشفى وتجلس بجانب المرشدة.

لم يأتِ كولومان لاصطحاب زوجته.

عند المساء، أراقبُ من خلال النافذة فأرى كولومان جالساً كالعادةِ إلى طاولته في الغرفة الأمامية. أما لين فأراها منهمكة برعاية طفلتها في الحجرة الاخرى.

صباح الإثنين، تصعد لين إلى الباص. تبدو أكثر شحوباً وأشدّ نحولاً مما كانت عليه؛ تجلس بجانبي. تبكي. تتشبّث بيدي، بذراعي:

ـ ساندور، ساندور.

أسأل:

ـ لِمَ بقيت في المستشفى كلّ هذه المُدّة؟

بالكاد أسمع الجواب الذي تهمس به في أذني:

ـ لقد أجهضت، يا ساندور.

Twitter: @ketab_n

ألزم الصمت. لا أدري ماذا أقول. لا أدري إذا كنتُ مسروراً أم حزيناً. أضمُّ لين إلى صدري بقوة. تقول:

ـ بسببك أنت. كلّ هذا بسببك. لقد ظنَّ كولومان إنه طفلنا، أنا وأنت. مع أننا لم نمارس الحبَّ أبداً.

ـ لا، أبداً يا لين. أكنتِ ترغبين في الاحتفاظ بهذا الطفل؟

ـ ليس بإمكانك يا ساندور أن تدرك ما نشعر به حين ينتزع منا طفلنا فربّما كان الجنين صبّياً صغيراً. وقد أرغمني كولومان على التخلّص منه. زوجي، ما عدتُ أحبُّه يا ساندور، إني أمقته. أكرهه. ثمَّ، لا بدَّ أن لديه عشيقة في المدينة. لقد أصبح يعود إلى البيت في ساعات متأخرة لذا اتخذنا القرار بأننا فور عودتنا إلى البلاد سنباشر بمعاملات الطلاق.

أقول:

ـ إذاً، دعي كولومان يعود بمفرده، وابقي معي. بإمكانك أن تنتقلي إلى بيتي بدءاً من هذه الليلة، ومعك الصغيرة، كلُّ شيء جاهز، غرفة الطفل، غرفتنا، وفي البيت كلّ ما نحتاجه حتى الماء.

ـ أهناك غرفة أطفال في بيتك؟

ـ أجل يا لين. إني أنتظركما منذ وقت طويل. فيما بعد سأنجبُ منك صبياً صغيراً، يا لين. بل سأنجبُ منكِ ما شئتِ من الأولاد.

ـ وسنضعهم في الحضانة خلال دوام عملنا.

ـ لِمَ لا؟ سيكونون سعداء في الحضانة. ففيها ألعاب ورفاق وأصدقاء.

Twitter: @ketab_n

ـ ولكن ليس فيها أُسرة. هنا، لن تكون لهم أُسرة مهما عاشوا. لا جدّة ولا جدّ ولا أعمام ولا عمّات ولا أولاد عَمّ.

ـ بالطبع لا يمكن للمرء أن يحظى بكلّ شيء فحين يغادر واحدنا بلاده، عليه أن يتكيّف مع ظروفه الجديدة. وإذا كنتِ تحبينني ستقبلين بهذا الواقع.

ـ أحبُّكَ يا ساندور. ولكن ليسَ بالمقدار الذي يجعلني أبقى.

ـ إنْ عدتُ معك إلى البلاد، هل تقبلين الزواج منّي.

ـ لا، لا، إني أسفة يا ساندور، لا أظنّ اني سأفعل. كيف سأعرّفك بوالديّ؟ أقول هوذا طوبياس، زوجي، إبن استير.

ـ بإمكاننا أن نكذب. ولن يعرفني أحد.

ـ أن أكذب؟ طيلة عمري؟ أكذب على والديّ؟ على أولادنا؟ على الناس جميعاً؟ كيف تجرؤ على اقتراح مثل هذه الفعلة؟

وحدي في البيت. أحدّقُ في غرفة الطفل، في الدمى، في مبذل الحرير الذي ابتعته من أجلِ لين.

لم تعد هناك وسيلة. لقد استنفدت كلّ الوسائل. العجزُ هو أشدّ المشاعر وطأةً. لا أملكُ إلاّ أن أحتسي البيرة كوباً بعدَ كوب، وأن أدخن السكائر سيكارة تلو الأخرى، وأن أمكث جالساً لا فكرةً تراودني ولا رغبة.

انتهى كلُّ شيء. لن تنتقل لين إلى بيتي. وعمّا قريب سترحل

Twitter: @ketab_n

برفقة رجل لا تحبّه. أقولُ في سرّي إنها ستكون تعِسة، وإنها لن تحبَّ سواي.

فيما بعد، أدخل المطبخ لأتناول شيئاً من الطعام. أحضر قطعة شحم من الثلاّجة. وأحضر اللوح والسكين لأقطعَ الشحم.

اقطعُ قطعتين ثمّ أتوقف. أُحدِّقُ في السكين الذي أحمله بيدي. أمسحه. وأدسّه في جيب سترتي الداخلي. أنهضُ، أغادر المنزل، وأركب درّاجتي.

أُدوِّسُ بحَنَق. أعلم أنني مجنون. أعلم أنَّ ما سأفعله لن يُسوّي الأمور ولكنْ يجب أن أتصرّف، أن أفعل شيئاً. ما عدتُ أملك شيئاً لأفقده، وكولومان يستحقّ الموت.

يجب أن ينال جزاءه لأنهّ أرغم زوجته على التخلّص من طفل كانت تحمله منه. كنت أفضّل أن يكون الطفل طفلي أنا. ولكنْ هذا ما حصل.

عند الثامنة مساءً، أجدني مرابطاً قبالة منزل لين. لا نور في الغرفة الأمامية. لا بدَّ أن لين في المطبخ، أو في الغرفة الأخرى تعتني بڤيوليت.

الشوارع مقفرة. لا عابر سبيل. أقتعد درجات سلّم، وانتظر.

يصل كولومان نحو الساعة الحادية عشرة مستقّلاً الباص الأخير. أقطع عليه الطريق أمام باب بيته.

ـ ماذا تريد يا ساندور؟

ـ أن تنال عقابك جزاء ما فعلته بلين. لقد كان طفلك، يا كولومان، وليس طفلي.

Twitter: @ketab_n

يحاول أن يبعدني من طريقه:

ـ أيها الاحمق، أغرب عن وجهي!

استلُّ السكين من جيب سترتي وأطعنه في بطنه. لا أُفلح في سحب السكين من لحمه. يتكوّم كولومان بجسمه حول النصل، ويسقط أرضاً. أتركه هناك، ملقىً على الأرض. أركب درّاجتي وألوذ بالفرار فيما صرخاته الفظيعة تدوي في أذني.

إني مُستَلْقٍ على السرير، أنتظر رجال الشرطة. لقد تركتُ الباب مفتوحاً. وعلى هذا النحو تنقضي الليلة، إذ لا استطيع النوم. مع إني لستُ خائفاً. السجن أو الفبركة، سيّان عندي. على الأقل ستتخلّص لين من هذا الرجل المقيت.

عند الصباح، أستيقظ وأدرك أن رجال الشرطة لم يصلوا بعد. لين هي التي وصلت، نحو التاسعة. إنها المرّة الأولى التي تأتي فيها لزيارتي. تجلس على الكرسي الوحيد في الشقة.

أسأل:

ـ هل مات؟

ـ لا، إنه في المستشفى. وما أن يُغادر المستشفى في غضون أيام قليلة، سنرحل. لقد هرع الجيران عندما سمعوا صراخة واستدعوا سيّارة إسعاف. الجرح سطحي.

Twitter: @ketab_n

ألزم الصمت. أقول في سرّي إنني بالفعل، غير قادر حتّى على قتل أحد ما.

تردف قائلة:

ـ لم يتقدّم كولومان بشكوى ضدّك. وكان شرطه الوحيد: أن أترك له ڤيوليت بعد طلاقنا. وكان عليّ أن أوقّع وثيقة بهذا الخصوص. لقد بلّغ بأنه تعرّض لاعتداءٍ من قبل مجهول.

ـ كان ينبغي ألاّ توقّعي يا لين. فأنا لا أبالي إذا دخلتُ السجن.

ـ أردتُ أن أجنّبك الحَبْس لأني أحبُّك يا ساندور. أكثر مما تحبني أنت. لو أنّك أحببتني حقاً لرحلتَ بعيداً من هنا ولاستطعتُ أن أنساك.

ـ أمّا أنا فلا، يا لين. ما كنتُ لأنساكِ أبداً.

ـ كنتَ لتلتقي امرأة أخرى.

ـ ما مِن امرأة تقدر أن تكون أنت، ما من امرأة تقدر أن تكون لين.

ـ إسمي كارولين. أمّا لين فهي واحدة من اختراعاتك. كلّ النساء اللواتي عرفتهن في حياتك يُدعَيْنَ لين.

ـ لا، فقط أنتِ. بما أنك فقدت كلّ شيء، ابقي هنا معي.

ـ مرّة ثانية؟ أعتقد أنك مجنون يا ساندور. لم تجلب لي معك سوى المآسي. لقد دمّرتَ حياتي. فقدتُ طفلتي بسببك. لا أريد أن أراك بعد الآن، أريد أن أحيا في نفس البلد الذي تحيا فيه ابنتي. الوداع يا ساندور.

Twitter: @ketab_n

تنهضُ. تغادر. وتغلق الباب وراءها.

لم أخبرها أني أخوها.

لم أخبرها أني حاولتُ أن أقتل والدنا.

أمّا حياتي فيمكن أن تلخَّص ببضع كلمات: جاءت لين ثمَّ عادت ورحلت.

في سرّي، أقول لها أيضاً:

ـ في ذلك الزمن، زمن طفولتنا، كنتِ دميمة ولئيمة. كنتُ أظنُّ أنني أحبُّك. كنتُ مُخطئاً. أوه! لا يا لين، أنا لا أحبُّك. لا أنتِ ولا أحد سواكِ، ولا شيءَ آخر، ولا الحياة.

Twitter: @ketab_n

يتراءى لي أن السماء تتهيأ للمطر. وقد تكون أمطرت فعلاً بينما كنتُ أبكي.

بالتأكيد. على راحتيّ، اكتسى الهواءُ ألواناً، وبجانب الغيوم القائمة، يبدو الأزرق شفيفاً.

الشمس لا تزال هنا، خرقاء، موشكة على السقوط. والمصابيح غرزت جذورها عند جانب الطريق.

في السماء المترنِّح، ينطلق العصفور الجريح في طيرانه المنحني، غير أنَّ اليأسَ الذي ألمَّ به يُسقطه مجدّداً عند قدمي.

كنتُ كبيراً وثقيلاً، يقول. كان الناس يخافون ظلّي الذي يهوي عليهم ما أن يحلّ المساء وأنا أيضاً كنتُ أخاف حين كانت القنابل تتساقط. كنتُ أحلّق بعيداً جداً، وما أن يزول الخطر، أعودُ محوِّماً فوق الجثث.

كنتُ أعشق الموت. أعشق اللعب مع الموت. جاثماً فوق

Twitter: @ketab_n

قمة الجبال القاتمة، كنتُ أبسط جناحيَّ، واستسلم لاندفاعة سقوطي مثل حجر.

غير أني لم أذهب يوماً إلى أقصى ما يمكن الذهاب إليه.

كنتُ لا أزال خائفاً. ولا أعشق إلاّ موت الآخرين.

«أما موتي أنا، فلم أتعلَّم أن أعشقه إلاّ فيما بعد، ما بعد ذلك بوقت طويل»

أحضن العصفور بين ذراعي، أداعبُ ريشه. جناحاه الطليقان متقصّفان.

«لن يعود أحدٌ من أصدقائي المهانين يقول. إذهب إلى المدينة. فهناك ما زال هناك نور. نور يجعلُ وجهك شاحباً، نور يشبه الموت. إذهب إلى هناك حيث الناس في غبطة لأنهم لا يعرفون الحبّ. مُتخمون فلا يحتاج واحدهم الآخر ولا يحتاج الله. عند المساء يوصدون أبوابهم بإحكام وينتظرون بصَبر ريثما تمضي الحياة.

ـ أجل، أعرف ذلك، أقول مخاطباً العصفور الجريح. منذ سنوات عديدة حَدَثَ لي أن ضَلَلتُ طريقي في إحدى المدن. كنتُ لا أعرف أحداً فيها. فلا أبالي إذاً حيثما أكون. كان بإمكاني أن

Twitter: @ketab_n

أكون طليقاً وسعيداً لأنني حينذاك لم أكن أحبّ أحداً.

توقفت عند ضفة بحيرة سوداء. مرَّ بي ظِلٌّ وحدَّق في وجهي مليّاً. أو أنَّ ذاك لم يكن سوى قصيدة كنتُ أردِّدها على الدوام، أكانت تلك موسيقى؟ ما عدتُ أدري، أحاول عبثاً أن أسترجع الذكرى. كنت ضائعاً. فلُذتُ بالفرار.

كان لي صديق. منذ سبعة أعوام، انتحر. لا أستطيع أن أنسى قيظ أيام الصيف الأخيرة ولا نحيب الغابات اليائس تحت المطر.

ـ أمّا أنا، يقول العصفور الجريح، فأعرفُ حقولاً رائعة. لو استطاعت أن تصل إليها لأهملتَ قلبك. هناك، ما من ورود، فالعشبُ فيها يُلوِّحُ مثل بيارق، تلك الحقول السعيدة التي ليس لها حدود. لن يكون عليك إلاّ أن تقول: أودُّ أن استريح يا أرضَ الدعة.

ـ أجل، أعلم. ولكنَّ ظِلاً سيعبر، لوحة، قصيدة، نَغَم.

ـ «إذاً، اذهب إلى قمة الجبل، يقول العصفور، ودعني أموت. لا استطيع أن أكابدَ حزنك. كآبة الإيماءات، كآبة مساقط المياه التي بلون الرماد، كآبة الفجر السائر قُدُماً في الحقول الموحلة».

فوق الجبل اجتمع العازفون. طوى قائد الجوقةِ جناحيه القاتمين وشرع الآخرون بالعزف.

Twitter: @ketab_n

كان مركبهم يُبحر في خضمٍّ من الأنغام، والحبالُ تصفقُ في عبِّ الرياح.

أصابع اكبرهم المقفَّعة انغرزت في الخشب. نزع الأربعة الآخرون ملابسهم، وكانت أضلاعهم تنتفخ ورُكَبُهم تلتوي، وعلى عروقهم ترقص عناكب سودٌ.

في الوادي، كان صدى الشمس ما زال يتردّد، ومنازل ريفية وديعة ترعى عشبَ الحقل حين ركع العازفُ الأبرع على الهضبة، وهو الذي كان يتنزَّه حالماً بين غمار القمح. وفي مؤخِّر المركب شرع بالإنشاد أشدّ العازفين غبطة.

الآخرون لم يروا عكّازي الشمس العاجزة. لوحة ازدحمت بألوان السماء. وفي العيون أضاءت النجوم المقبلة.

عندها حمل رجال المركب موتاهم على أكتافهم ورمقوا الأرض بنظرةٍ أخيرة.

Twitter: @ketab_n

بمضي عامين على رحيل كارولين، وُلِدت ابنتي لين. بعد ذلك بسنة واحدة وُلِد ابني طوبياس.

نضعهما في الحضانة صباحاً. ونصطحبهما عند المساء.

زوجتي يولاند، أمّ مثالية.

ما زلتُ أعمل في فبركة الساعات.

عند محطّة البلدة الأولى، لا أحد يستقلّ الباص.

ما عدتُ أكتب.

Twitter: @ketab_n

الفهرس

الهروب 7

بالطبعِ لستُ ميتاً 12

الكذبة 19

يسألني الطبيب 21

أحسبُ 37

اليوم أعاود السيرة الحمقاء 40

العصفور الميت 55

أصبحت لا أزور بول إلاّ 58

هُمْ 65

إني متعب 68

المطر 103

أعود إلى البيت على درّاجتي 106

مسافرو المركب 123

بمضي عامين على 127

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أمس

آغوتا كريستوف

- كاتبة مجرية، تعيش في سويسرا منذ العام 1958 وتكتب بالفرنسية.
- تعمل في مجالي التدريس والمسرح
- صدر لها:
  1 - الدفتر الكبير
  2 - البرهان
  3 - الكذبة الثالثة
- صدرت روايتها الأخيرة «أمس» أواخر عام 1995 ورُشّحت لجائزة غونكور الأدبية الفرنسية.

المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت - لبنان
ص. ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب